المملكة العربية السعودية
وزارة المعارف

ادارة المكتبات المدرسية



ترجمه وقدم له وعلق عليه

الدكتور حسن حبشي

كلية الآداب ـ جامعة عين شمس

ملتزم الطبع والنشر

دار الفكر العربي

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

١ــ ما زال تاريخ الشرق العربى فى علاقاته المختلفة بالغرب فى العصور الوسطى فى حاجة الى كتابة دقيقة قوامها عاملان أولهما المعلومات التاريخيـــة الصحيحة التى لا زال معظمها فى ثنايا الخطيات العربية والاسلامية المبعثرة فى مكتبات الشرق والغرب الخاصة والعامة، وثانيهما شهود العيان من المؤلفين الغربيين ؛ وتشغل الحروب الصليبية فى تاريخ هذا الشرق فترة غير قصيرة من الزمن تمتد من سنة ١٠٩٥ م حين عقد البابا اربان الثانى (١٠٨٨ ــ ١٠٩٩ م) مجمع كلير مونت بجنوب فرنسا ثم يختلف المؤرخون فى تحديد نهايتها .

والواقع أننا بحاجة ماسة فى نهضتنا العربية الحديثة الى الوقوف على ما حفظته لنا الايام من كتابات الكتاب الغربيين ، والتى كان بعضها على شكل رسائل الى ذويهم أو كتب قصيرة دونوا فيها ما شاهدوه بأنفسهم فى هذه الحروب التى تعد نقطة انتقال فى تاريخ الحياة والفكر والحضارة الانسانية ، وفى تاريخ النظم والقوانين ، وفى تطور العلاقات الاقتصادية ، وقد وصف هؤلاء الكتاب صور الحياة التى كانت سائدة فى عصرهم وتلقفوا بعضها بالسماع من الرحالة الذين كانت كتاباتهم موضوع دراسة الآخذين على عاتقهم تدبير الوسائل لاحتلال هذا الشرق فجدير بنا ــ ونحن على أبواب حياة جديدة ــ ان ننظر بعين الاعتبار الى هذه المؤلفات الغربية وننقلها الى لغتنا حتى يتمكن الدارسون من كتابة التاريخ القومى لقطاع الشرق العربى كتابة صحيحة ، ولا تلبث مكتبتنا

العربية بها أن تحتل مكانة الصدارة فى المراجع العالمية والدراسات الجامعية .

ولقد شغلت نفسى بدراسة الحروب الصليبية ، وكانت جزءا من أثناء دراستى فى انجلترا وفرنسا وألمانيا وايطاليا وهولندة ، ثم تهيأت لى الفرصة للقيام قياما مجزوءا بتدريسها لطلابى فى الجامعة ، فأحسست بالفراغ الكبير فى هذا المجال ، وكنت قد أخذت نفسى منذ حين بنقل الوثائق المتعلقة بهذه الحروب الى العربية ، سواء ما كان منها على صور معاهدات واتفاقيات ضاعت أصولها العربية ، أو ما كان منها على شكل رسائل وكتب رحلات ومذكرات ويوميات ، فأخذت معالم الطريق فى كتابة تاريخ الحروب الصليبية تتضح أمامى ، ومن ثم آليت أن أخرجها للعربية جديدة لاول مرة ؛ ولست أطمع من وراء ذلك الا أن تصبح المكتبة العربية حافلة بكل وسائل البحث التى يحتاجها الباحث فى هذا الميدان البكر علينا .

وأنا مؤمن ايمانا تاما بأنه لا بد من الجمع — للكاتب العربى — بين وجهتى نظر الكتاب المسلمين والمسيحيين ، والاطلاع على ما كتبه الفريقان وغربلة تلك الاخبار غربلة دقيقة لا يقف منها ازاء روح التعصب التى تبدو من الجانبين ، اذ العصر وقتذاك عصر ايمان وحرب — أو هكذا يبدو للعيان — ، ونزاع حول اماكن ينزلها الفريقان منزلة القداسة أو ما يقاربها وكل يدعى صحة الحجة فيما يدعى ، وليس يهم الباحث المجرد للبحث العلمى الخالص أن يصادف هذه الروح من التعصب لانها لا تزيد عن كونها حشائش لا يعتد بها بل تجرفها المياه الجارية فلاتقوى على مصارعة التيار ولا يعبأ بها الملاح ، ثم لا تلبث أن تذهب للعدم ، أو هى كالزبد — ان لم تكن الزبد بذاته — يذهب هباء ، أما ما يبقى فهو الاحداث بصورها الزمانية والمكانية وتأثيراتها الاجتماعية والسياسية والعمرانية والاقتصادية والثقافية . والكتاب الذى أترجمه اليوم هو

جزء من هذا المجهود الذى أرجو أن تساهم فيه جهود المهتمين بهــذه المواضـــيع حتى نرد الى هـــذا الوطن العربى بعض الدين الذى فى أعناقنا له .

٢ — يعرف هذا الكتاب باسم Gesta Francorum et Aliorum Hierosolimitanorum ويتناول الفرنجة والحجاج الذين جاءوا من الحملة الاوربية الغربية منذ ١٠٩٥ وهى المعروفة بالحملة الصليبية الاولى .

والمعروف أن هذه الحرب كانت احدى النتائج التى تمخض عنها المؤتمر الذى دعى اليه البابا اربان الثانى فى مدينة كلير مونت ، واذانظرنا الى الحروب الصليبية باعتبارها حرب المسيحية ضد الاسلام فى أضيق الحدود ، ومحاولتها اخراجه من النواحى التى تمكنت له السيطرة فيها أمكن اعتبارها امتدادا لحركة الاسترداد Reconquista الاسبانية أو تشعيبا لها ناحية الشرق الاسلامى .

ومع اننى لا أميل الى الاخذ بهذه الفكرة للأسباب التى بينتها فى دراسة مستقلة عن هذه الحرب (١) ، الا أنه ليس ثم مانع من الاشارة الى وجدة العامل الموجه فى كليهما وهو امتشاق الحسام ضد الجماعات الاسلامية فى كلتا المنطقتين ، غير أنه يبدو أن المسيحية الغربية كانت تعد بلاد الاندلس ملكا خالصا لها ، ومن ثم اتسمت نزعتها فى محاربة المسلمين بها الى استئصال شأفتهم والقضاء عليهم ؛ أما فى الشرق فقد بدى أن هم الغرب هو القضاء على القوى الاسلامية كقوة فعالة فى تحريك أمور هذه البقعة ، كذلك كان همه منصرفا الى تملك بعض نواحى الشرق العربى فى اطار يعمل فيه الشرقيون والغربيون معا لخدمة الاغراض الاوربية .

---

(١) راجع الفصل الاول من الطبعة الثانية من كتابى «الحرب الصليبيه الاولى».

إتجهت موجة الفتوح العربية نحو الغرب وعبرت مضيق هرقل الذى عرف بمضيق جبل طارق منذ سنة ٧١١ م ، واستطاع العرب فى مدى سنوات قلائل أن يستصفوا لهم معظم شبه جزيرة أيبريا عدا بعض نواح قليلة كانت الجرح الذى لم يندمل حتى أخرجوا منها ، على أن حركة التوسع العربى سارت قدما فشهد القرن التالى قيام الاغالبة بتونس ومصارعتهم البيزنطيين وأخذهم جزيرة صقلية التى وثبوا منها الى جنوب ايطاليا فاحتلوا مدينة بارى (٨٤٨ م) وتارنت (٨٥٦ م) الا أن مقامهم بها لم يطل أكثر من ربع قرن .

ثم جاءت موجة الفتوح الترمندية فبلغ مدهما فيما بلغ انجلترا وصقلية وذلك منذ النصف الثانى من القرن الحادى عشر ، واستطاعت هذه الجماعة المخاطرة الشمالية بزعامة روجر الاول استخلاص صقلية من يد العرب ثم تبع ذلك جزيرة مالطة عام ١٠٩١ م .

وتدلنا أحداث القرن الحادى عشر على أن هناك قوى كثيرة تعاونت ــ مستقلة أو متضامنة ــ فى محاربة العرب فى البحر الابيض المتوسط ، والواقع أن نشاط العرب التجارى أزعج الجمهوريات الايطالية التى كانت تريد احتكار هذا البحر لنفسها ، فنرى الجنوية والبيازنة يتعاونون معا فى محاربة العرب بصقلية عام ١٠١٦ ، ثم اندفع البيازنة الى مدينة بونة ١٠٣٤ م وقاموا بتأثير البابا فكتور الثالث بالهجوم على تونس ١٠٨٧ م حيث سقطت عاصمتها المهدية فى أيديهم .

* * *

٣ ــ هذا هو القرن الذى كانت تلك الاحداث الحربية من الصراع العالمى وقتذاك طليعة للحروب الصلبية ، وفى وسط هذه الاحداث كلها دعى البابا اربان الثانى الى توجيه النشاط الغربى نحو الشرق العربى ،

فكان من ذلك مؤتمر كلير مونت (١) .

وقد اختلفت الآراء حول الدواعي التي حركت البابوية الى دعوة الغرب الاوروبي لقتال المسلمين في الشرق ، وان أمكن اجمالها — فيما يقال — في كثرة شكايات حجاج بيت المقدس من سوء معاملة الفاطميين وما كان يلقاه مسيحيو هذه المنطقة على أيديهم من مآس بلغت ذروتها زمن الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله ، وإن عدت هينة بالنسبة لما لاقوه حين آل بيت المقدس الى جماعة السلاجقة ؛ والى جانب هذا تمسكت البابوية بفكرة الفراغ الذي نجم عن هزيمة البيزنطيين في وقعة منزيكرت ١٠٧١ م ، فرأت أن تحل أوربة الغربية في الدفاع عن هذه المنطقة وعن حجاجها الاوربيين ، وكانت هذه تكئة واهية وعلة سقيمة لاحتلال بلاد الشام .

وجدت دعوة البابا استجابة من الجماعات الشعبية التي تهيأ لها داعية شعبي راح يجوب آفاق فرنسا وألمانيا هو بطرس المعروف بالناسك وما هو بالناسك ، ولكنه لقب لقب به للبسه قلنسوة تشبه قلنسوة النساك ، وقد خرج بطرس بجموع كثيفة غير نظامية دلت منذ البداية على الفوضى الضاربة أطنابها بين صفوفها ، فلم تكن هناك قيادة موحدة أو خطة مرسومة ، فساءت أسوأ سيرة ، ولم يسلم المسيحيون الاوربيون ولا الكنائس الاوربية في النواحي التي مروا بها من تعدي هؤلاء الصليبيين مما بغضهم الى نفوس من اتصلوا بهم ، على أنه قدر لهذه الحملة أن تبلغ القسطنطينية وأن تعبر البسفور الى آسيا الصغرى حيث سلكت مفاوز عدمت فيها الماء والقوت . فهلك الكثيرون منهم .

---

(١) فصلنا احداث ذلك في كتابنا « الدبلوماسية البابوية » .

ووجدت هذه الدعوة تلبية من جماعة من بارونات فرنسا وزعماء النرمنديين ، كان من أبرزهم جودفروى دى بويون وأخوه بلدوين ، وريموند كونت تولوز ، وروبرت كونت فلاندر وبوهيمندبن روبرت جسكارد عدو الامبراطورية البيزنطية التقليدى ، وابن أخيه تنكريد ، وامتازت هذه الحملة — التى يمكن تسميتها بحملة الامراء — بالنظام ، وكانت الشكوى منها أقل بكثير من الشكوى من الحملة غير النظامية.

وتمكن ألكسيوس كومنين امبراطور بيزنطة من ان يأخذ العهود بالولاء والطاعة له من معظم قواد هذه الحملة سوى ريموند وتنكريد ، وسارت الحملة بعدئذ فى آسيا الصغرى حيث انفصل فريق صغير منها بقيادة بلدوين أخى جودفروى واتجه الى الرها ، حيث شارك أميرها — واسمه توروس — الارمنى فى حكمها ، ثم ما لبث ان استقل بها ، مؤسسا فيها امارة لاتينية حاول فيها زيادة العنصر اللاتينى لموازنة العنصر الارمنى .

على أن الحملة الصليبية الرئيسية تابعت زحفها الى الجنوب حيث انطاكية ، واستفادت من تفتت القوات الاسلامية وتنازعها فيما بينها ، وتمكنت بفضل هذين العاملين — بالدرجة الاولى — من احتلال انطاكية واستقر فيها بوهيمند النرمندى ، ثم سارت الحملة واحتلت طرابلس حتى تهيأ لها الوصول الى بيت المقدس فانتزعته لنفسها ، وتولى أمره جود فروى دى بويون الذى أبى أن يتوج فى المكان « الذى توج فيه المسيح بالشوك » .

هذه هى خلاصة الحرب الصليبية الاولى التى يتضمنها هذا الكتاب الذى نقدمه اليوم وهو مذكرات شاهد عيان صحبها منذ البداية .

***

٤ — ويتناول الكتاب تاريخ الجماعات الصليبية التى خرجت

استجابة لدعوة البابا اربان الثانى وهى الجماعات التى تسمى فى التاريخ الغربى « بالحجاج » ، رغم أنها نهضت للقتال واسترداد بيت المقدس ، وقد تآلف أهل العصور الوسطى فى الغرب على تسمية الجماعات المسيحية باسم الاحرام المقدسة التى تحج اليها ، ومن ثم اشتمل موضوع هذا الكتاب على « حجاج بيت المقدس » .

* * *

٥ — لكن من هو مؤلف هذه المذكرات ؟

لا يعرف على وجه التحقيق من مؤلف هذا الكتاب رغم كثرة اقتباسات معاصريه منه ، ورغم كثرة الاشارة اليه والاعتماد الكبير عليه فى الدراسات الصليبية المتأخرة الخاصة بالحرب الاولى ، وقد صار « المؤلف المجهول » موضوع بحث الكتاب حتى يومنا هذا ، ومع ذلك لم يمكن الوصول الى كشف القناع عن اسمه وحقيقته ، بل كان كل ماأمكن الوصول اليه من نتائج لا يزال موضع جدل ، فهى نتائج ليست مقررة بل من قبيل الظن والترجيح لا من قبيل التأكد واليقين ، ولم يستطع التصريح باسمه من الكتاب سوى الكونت ريان الذى ذكر فى مقال له بمجلة الشرق اللاتينى (ج ١ ص ١٤٥) أنه « اسكندر » كاتب وقسيس ستيفن دى بلوا الذى ساهم فى الحملة الصليبية الاولى الى جانب النرمنديين .

غير أن الواقع يدحض هذه الفكرة ، ذلك لان كونت بلوا كان اول الفارين من أمام أنطاكية حين طال حصارها وحين ترامى الى سمعه نبأ تقدم قوات كربوغا — أتابك الموصل — نجدة لياغى سيان والى أنطاكية ، كما اننا نلمح فى كتابات المؤلف المجهول فى هذه المذكرات مهاجمته العنيفة فى أكثر من موضع منها لستيفن دى بلوا واتهامه اياه بالجبن والضعف وعدم خدمته الصالح الصليبى ، أضف الى هذا انه ليس فيما كتبه مؤرخنا المجهول ما يشير — من بعيد أو قريب — الى اية علاقة تربطه بستيفن دى بلوا .

ولا جدال في اشتراك صاحب هذه المذكرات في الحملة الصليبية الاولى النظامية اشتراكا شخصيا ، لكن تعن على البال بعض أسئلة حول ماهية هذا الاشتراك ومداه ، وهل نستطيع أن نستدل على مكانته من خلال هذه المذكرات ؟ وهل كان لهذه الشخصية انعكاس في أحداث موضوعنا ؟

ربما وقف الجهل المطبق باسم مؤلف ما سدا حائلا بيننا وبين التعرف على شخصيته وأهميتها ، ولكن الامر ليس على هذه الحال ازاء صاحب « الجستا » التي وردت في ثناياها اشارات قد تكون عارضة ولكنها هامة في اماطة اللثام عن بعض جوانبه ، فأول ما نلاحظه أنه لم يشر الى فرنسا اشارة صريحة في معرض كلامه عن رحلة البابا اربان الثاني ودعوته لمؤتمر كلير مونت في بلاد جنوب فرنسا ، ولكنه تكلم عن الاثر العميق الذي تركته خطبة البابا وما أدت اليه من اكتساب الاراضي الواقعة فيما وراء الجبل Ultra montanas partes ، قد أبان المؤرخ بريييه Brehier ان هذا التعبير انما يرمز به المؤلف الى « فرنسا » اذ أن المتتبع لرحلة البابا في التبشير بالدعوة الصليبية يتبين في جلاء أنه ظل يدعو في مناطق فالنسيا وبوى وبرجنديا في المدة التي سبقت عقد مؤتمر كلير مونت والتي استغرقت منه ثلاثة أشهر كاملة ، ومن ثم كانت اشارة الجستا الى فرنسا باسم « الاراضي الواقعة فيما وراء الجبل » دليلا على انه كان من شبه جزيرة ايطاليا .

وثم ناحية أخرى في كتابات الجستا قد تحدد موطن المؤلف ، فهو يقول في معرض الكلام عن وصول بطرس الناسك الى القسطنطينية ان جماعة « اللمبارديين » انضموا اليه ، ويتكلم المؤلف في موضع آخر عن الجماعة النرمندية التي دخلت أنطاكية بناء على الاتفاق السرى المبرم بين فيروز وبوهيمند ، وفي هذا الموضع يكتفي المؤلف بقوله « تزل سرجندي لمباردي » ، وهو لا يعني بذلك سوى نرمان وسط ايطاليا .

ويشير مرة أخرى الى نرمان وسط ايطاليا وذلك حين استسلام أحمدبن مروان القائم على قلعة أنطاكية للفرنجة ، حيث بعث إليه ريموند كونت تولوز برايته ليرفعها على القلعة « فلما شاهدها اللمبارديون قالوا ليست هذه راية بوهيمند » ، وهذا نص صريح على تسميته نرمن وسط شبه الجزيرة الايطالية باللمبارديين ، وهو لقب عرفوا به أثناء هذه الفترة من التاريخ ، ويزيد برييه على ذلك أن صاحب الجستا يختص بوهيمند دون بقية الامراء الصليبيين بكلمة « الرئيس Dominus » مما يدل على أنه كان فى جيشه ومن أتباعه .

على أن أهمية هذه النسبة تتركز فى أنه يعتبر مصدرا من المصادر الاولى فيما يتعلق بالجماعات الايطالية التى أسهمت فى شقى الحملة الصليبية الاولى ، ولكن أهمية هذا المصدر تتوقف على المكانة التى كان عليها صاحب الجستا : فهل كان من النبلاء والاشراف ؟ أم كان من العامة الذين راحوا وقودا فى أتون هذه الحرب والحروب التى تلتها ؟

ان مذكرات الجستا صريحة كل الصراحة فى انه لم يكن من طبقة الامراء والقادة ، والدليل على ذلك مستمد من كلامه هو نفسه ، ففى أثناء الاستعداد للزحف على بيت المقدس يشير الى ارسال هيج الكبير الى الامبراطور ليقدم لتسلم المدينة ثم يقول « بعد أن فرغ زعماؤنا من ذلك كله التأم شملهم مرة ثانية » .

كذلك لم يكن من غمار الناس ، بل كان من فئة يمكن ان نسميها بالطبقة الوسطى ان جاز استعمال هذا التعبير فى مثل ذلك العصر ، والدلائل على انتسابه لهذه الفئة متوفرة لمطالع هذه المذكرات .

وهو ليس من الحجاج ، اذ المعروف أن هذه الطبقة لم تكن تساهم قط فى أجتماع من الاجتماعات أو تعرف شيئا عن خطة القتال او مايدبره

الزعماء فيما بينهم ، ومع ان مؤلف الجستا لم يكن من القادة الا ان مذكراته تطفح بالمعلومات التي لا يتسنى للمرء الحصول عليها الا اذا كان ذا صلة قوية براسمي خطط القتال ، وهناك نص يوضح مكانته تمام الايضاح ويدل على أنه كان من مجلس المستشارين لكبار القادة حيث يقول : « عقدنا فيما بيننا مجلسا حربيا للتشاور فيما نصنع، وحينذاك انعقد اجماع زعمائنا على المبادرة بايفاد رسول الى الترك » ، أى انه كان من الجماعة التى تشير ، ولكن تقرير الامر موكول الى الرؤساء والزعماء .

وربما ذهب الظن بالمرء الى انه كان من جماعة رجال الدين ، ولكن ليس لدينا أى شاهد يؤكد هذا الظن فينزله منزلة الحقيقة ، ويستفاد ذلك من كلامه عن نفسه وعن القسس أثناء سفارة بطرس الناسك التى أوفدها الصليبيون الى كربوغا وهم أمام انطاكية فيقول « ولما لبس آساقفتنا وقسسنا وكهنتنا ورهباننا حللهم المقدسة خرجوا معنا حاملين الصلبان » ، وهذا نص صريح يفرق فيه بين نفسه وبين رجال الدين ، بل انه كان فى الواقع فى جماعة بوهيمند اذ نراه يفصل منذ البداية اخبار حملته وجماعته من نرمان ايطاليا الذين صحبوه .

ومما يدل على مشاركته هذه الجماعة استعماله ضمير المتكلم — وان يكن جمعا احيانا — » سرد هذه الاحـــداث ، ففى معرض كلامه عن استعداد بوهيمند لجمع المحاربين للنهوض الى الشرق يقول « خرجنا فى العدد الجسيم » ثم « بغلنا بعدئذ نهر الوردار » ، وكذلك فيما أورده من أخبار الاحداث منذ وقعة الوردار حتى الاستيلاء على نيقية ، ولم يبعد صاحب الجستا عن بوهيمند الا حين تخلف الاخير فى القسطنطينية لمشاورة امبراطورها فى وسائل تموين الجيش الصلبى ، ولكنه حتى فى هذه الحالة لم ينفصل عن جيش بوهيمند اذ تولى قيادته مؤقتا تنكريد

الذى رفض اذ ذاك ان يقسم يمين الولاء للامبراطور ، وسار المؤلف تحت راية تنكريد .

والكتاب بعد هذا كله أكبر مصدر لنا فى تاريخ الحملة الصليبية الاولى .

***

٦ — وكما خلى الكتاب من ذكر المؤلف أو الاستدلال عليه بين الاشخاص المختلفين الذين يمكن ان يقال انه واحد منهم ، كذلك خلى من الاشارة الى وقت كتابته أو املائه ، ولكن يتضح لنا من مطالعته انه يتناول الفترة منذ دعوة كلير مونت وينتهى بوقعة عسقلان يوم ١٢ أغسطس ١٠٩٩ عقب فتح بيت المقدس ، وليس هناك على ما يظهر تكملة لما وقف عنده المؤلف . على ان الاخذ بهذه الفكرة وذلك التاريخ لايساعدنا على تحديد تاريخ تدوينه ، غير ان هناك شواهد قد تصلح لان تكون معالم نهتدى بها فى اقترابنا من ذلك دون ان نعتبرها دليلا قاطعا .

بعد ان تم للصليبيين فتح بيت المقدس اخذ كثير من الحجاج فى الوفود اليه واجتاحت أوربة موجة عارمة من الفرحة حملت الكثيرين على التماس السعادة الروحية فى اداء فريضة الحج وزيارة الاحرام المسيحية المقدسة ، وكان من بين الوافدين لاداء هذه الفريضة المؤرخ Ekkéhard (+ ١١٢٥) وذلك سنة ١١٠١ ، وكان ايكيهارد رجلا جمع بين الدين وحب الاطلاع ، ولم يصرفه واجبه الدينى والتزاماته الرهبانية عن مطالعة كل ما يقع فى يده من اسفار لا سيما فيما يتعلق منها بالتاريخ ، ويعتبر ايكيهارد من المؤرخين الشهود العيان للسنة ١١٠١ ، فضمن ذلك كتابه « بيت المقدس » الذى يعتبر مقتطفات من تاريخه الكبير والذى طبع فى الجزء الخامس من مجموعة مؤرخى الحروب

الصليبية الغربيين ، وشغل هذا الجزء أربعين صفحة من الحجم الكبير .

ذكر ايكيهارد فى مؤلفه هذا انه تسنى له فى أثناء قيامه بالحج عام ١١٠١ مطالعة « كتيب » يتضمن قصة احداث الحملة الصليبية ، ولم يحدد لنا ايكيهارد اسم هذا الكتاب ولا مؤلفه ، ولما كانت الفترة الزمنية الفاصلة بين وقعة عسقلان وزيارة ايكيهارد للاحرام المسيحية المقدسة لا تعدو سنتين ، فالارجح أن « الكتيب » الذى يشير اليه هو «الجستا» لا سيما أن المقارنة بين الكتابين تبين لنا مدى التشابه القوى فى ذكر أحداث الحرب وأخبار الحملة منذ البداية حتى وقعة عسقلان ، وهى أحداث غاب عنها ايكيهارد ولكن شهدها مؤلفنا المجهول ، أضف الى هذا ورود بعض عبارات مقتبسة من الجستا فى كتاب ايكيهارد مما ينهض دليلا على أن كتاب الجستا كان معروفا بصورته الحالية بين عامى ١٠٩٩ ، ١١٠١ م .

وقد تهيأ للجستا أن ينتقل منذ وقت مبكر الى أوربة الغربية فنجد الاشارة اليه بعد سنوات قلائل فى مؤلف روبرت راهب مينز الذى يعد كتابه من المصادر الهامة للحرب الصليبية الاولى ، فنراه يذكر فى مقدمته أنه استجاب لرئيس أساقفة دير مرموتييه المتوفى عام ١١٠٧ م ، فراجع « تاريخا » عن هذه الحرب أهمل الكلام عن مجمع كلير مونت ، وأن رئيس الدير طلب اليه أن ينسخه ويكمله ، وبمقارنة الجستا بتاريخ روبرت الراهب تتضح ملامح الجستا واضحة فى اسطر كتاب الراهب ، ومن هذا نستفيد أمرين : أولهما تأييد القول بان الجستا كتب فى فترة تالية لانتهاء وقعة عسقلان وثانيهما أنه كان معــروفا فى الغرب الاوربى .

نخلص من هذا الى القول بان مادة الجستا ضم بعضها الى بعض

عقب وقعة عسقلان وخرجت على شكل كتاب قبل سنة ١١٠١ م ، وان جهل اسم مؤلفه .

***

٧ ــ أما الجستا فقد طبع منذ وقت مبكر يرجع الى مستهل القرن السابع عشر وهذا ثبت بطبعاته المختلفة :

(ا) طبعة فى هانوفر ١٦١٢ فى كتاب Gesta Dei per Francos وتشغل من ص ١ ــ ٢٩ فى الجزء الاول منه .

(ب) فى مجموعة Recueil des Historiens des Croisades (Occidentaux) ج ٢ ، ص ١٢١ ــ ١٦٣ (باريس ١٨٦٦) .

(جـ) طبعة مستقلة فى هيدلبرج ١٨٩٠ قام بنشرها المؤرخ الصليبى هاجنماير بعنوان : Anonymi Gesta Francorum et Aliorum Hierosolymitanorum

(د) الطبعة التى قام بنشرها الاستاذ بريييه بباريس عام ١٩٢٤ وأرفقها بترجمة فرنسية ومقدمة وتعليقات باسم Histoire Anonyme de la premiére Croisade.

***

٨ ــ وقد ترجم الكتاب الى الفرنسية عام ١٩٢٤ فى نسخة بريييه المشار اليها ، كما ترجم سنة ١٩٢٥ الى الانجليزية فى طبعة أنيقة خاصة فى خمسمائة نسخة فقط باسم The First Crusade, by S. de Chair وقد خلت من التعليقات .

***

أما هذه الترجمة العربية فهى أول ترجمة عربية له اعتمدت فيها أصلا على الاصل اللاتينى فى رقمى ٢ ، ٤ ، ثم قارنتها بالترجمة الانجليزية وكذلك بترجمته الفرنسية ، وقد استفدت من تعليقات بريبيه وأبنت عن ذلك فى مواضعه ، وأضفت اليها ما تيسر لى الاطلاع عليه من المراجع المعاصرة والمؤلفات الحديثة وكذلك بكتابات مؤرخى العرب والمسلمين .

وأرجو أن أكون قد وفقت فيما اهدف اليه من وضع الاصول الاولى للحروب الصليبية فى أيدى القراء العرب .

القاهرة فى ٢٧ نوفمبر ١٩٥٨

حسن حبشى

— ١ —

الدعوة للحملة الصليبية الاولى

دعوة البابا ، الحملة الشعبية ، الصليبيون فى القسطنطينية حملة بوهميند ونرمان ايطاليا ، بلوغهم نهر الوردار

١ — تحقق اليوم ما أعتاد المسيح أن يقوله دائما لاتباعه ، مصداقا لما جاء فى الانجيل « ان أراد أحد أن يأتى ورائى فلينكر نفسه ويحمل صليبه ويتبعنى (١) » مما أحدث حركة عظمى شملت جميع أقطار (٢) غالة ، فكان كل ذى قلب طاهر وروح سليمة ، صادق النية فى اتباع السيد والسير وراءه مخلصا فى حمله الصليب لا يتوانى عن المبادرة الى الضريح المقدس .

والواقع أن أربان(٣) الثانى — الرئيس الرسولى لكرسى رومية —(٤) سرعان ما اكتسب الى جانبه البلاد الواقعة فيما وراء الجبل (٥) بجميع مطارنتها وأساقفتها وشمامستها وقسيسيها ، وشرع يخطب القوم ويعظهم عظات غالية قائلا إنه لا يجوز لاى ساع فى خلاص روحه أن يتوانى عن أن يسلك خاشعا طريق السيد ، واذا أعوزه المال فالرحمة الالهية تعينه ، وأضاف السيد الرسولى الى ذلك قوله : « أيها الاخوان

(١) متى ١٦ : ٢٤ ؛ مرقص ٨ : ٣٤ ؛ لوقا ؛ ٩ : ٢٣ .

(٢) هى فرنسا الحالية .

(٣) هو اربان الثانى الذى اعتلى الكرسى البابوى من ١٠٨٨ حتى ١٠٩٩ .

(٤) الواقع أن هذا كان بعد المؤتمر البابوى الذى عقد فى مدينة كليرمونت بجنوب فرنسا فى نوفمبر ١٠٩٥ ، راجع

Foucher de Chartres, R. H. Occ. Cr., t. III, p. 323; Robert le Moine; Hierosolymitana exepditio (R.H. Occ. Cr., t. II), p. 727; Brehier : l'Eglise et l'Orient, pp. 66-7.

(٥) المقصود بهذه العبارة « فرنسا » ، وهى تشير الى ان كاتب الحوليات من أهل ايطاليا .

يجب عليكم أن تتعذبوا كثيراً من أجل اسم المسيح فتتحملوا المشقة والفقر ، وتكابدوا الحفاء والاضطهاد والذلة والمرض والجوع والظمأ وماشاكلها من الشرور ، كما قال السيد لتلاميذه : « سأريكم كم ينبغي أن تتألموا من أجل اسمي (١) » ، وقوله « انى أنا أعطيكم فما وحكمة لا يقدر جميع معانديكم أن يقاوموها أو يناقضوها (٢) » ، أو كما قال يضا : « انكم ستأخذون ميراثا عظيما » (٣) .

لم تلبث هذه الخطبة أن ذاعت شيئا فشيئا فى جميع أقطار غالة وولاياتها وما كاد الفرنجة يسمعون أقواله هذه حتى بادروا فى التو واللحظة الى خياطة الصلبان على أكتافهم اليمنى ، قائلين أنهم — على بكرة أبيهم — يريدون متابعة خطى المسيح واقتفاء أثره ، مؤملين أن تمكنهم تلك الخطى من استرداد القوة من التتار .

٢ — سرعان ما تركت جموع الفاليين مساكنهم واقتسموا ثلاثة أقسام ، فدخل فريق من الفرنجة أرض المجر وفيهم بطرس الناسك والدوق جود فروى وأخوه بلدوين ، ثم بلدوين كونت دى مونتس ، ولقد سلك هؤلاء الفرسان الشوس وكثيرون غيرهم — ممن أجهلهم — الطريق الذى سلكه من قبل شرلمان — ملك فرنسا العظيم — الى القسطنطينية (٤) .

---

(١) أعمال الرسل ، ٩ : ١٦ .

(٢) الرسالة الى تيموتاوس ١ : ٨ ؛ لوقا ، ٢١ : ١٥ .

(٣) متى ، ٥ : ١٢ ، الرسالة الى أهل كولوسى ٢ : ٢٤ .

(٤) ليس فى تاريخ شرلمان ما يشير الى ذهابه الى القسطنطينية ولكن الشائعات فى العصور الوسطى المتأخرة جرت على نسبة حملة صليبية اليه كما بين الاستاذ برهييه فى موضوعه

Les origine des rapports entre la France et la Syrie, p. 36 seq

ويشير نفس المؤلف فى

Hist. anonyme de la première Croisade, p. 5, note 11

الى ما جرى فى المانيا وقت الاستعداد للحملة الصليبية الاولى من القول بأن شارلمان عاد الى الحياة ، راجع فى ذلك أيضا

Ekkehard : Hierosolymitana, (R.H. Occ. Cr.), t. V. p. 19.

أما بطرس المشار اليه فكان أول (١) الذاهبين الى القسطنطينية ، فبلغها [يوم ٣٠ يوليو سنة ١٠٩٦ م] وبصحبته الفريق الاعظم من الالمان ، وهناك انضم اليه اللمبارديون وكثيرون سواهم ، فأمر الامبراطور بتزويدهم بالميرة بقدر ما تسمح به طاقة البلد (٢) ، وقال لهم « لا تعبروا البسفور قبل وصول بقية الجيش المسيحى لانكم لستم بالكثرة التى تمكنكم من محاربة الترك » ، فسار المسيحيون أسوأ سيرة ، اذ خربوا قصور المدينة وأضرموا فيها النيران وخلعوا الرصاص الذى كانت تغطى به الكنائس وباعوه للاغريق ، فتلظى الامبراطور غضبا عليهم ، وأمر — وهو فى سورة حنقه — بابعادهم عن البسفور .

لم يتورع الصليبيون — بعد كل ما ارتكبوه — عن اقتراف شتى ضروب المساوىء كاضرام النار فى البيوت والكنائس وتخريبهم اياها ، وانتهى بهم السير أخيرا الى نيقوميديا حيث انفصل اللمبارديون والالمان عن الفرنجة ، وذلك لان الفرنجة قد تكبروا عليهم(٣) واختار اللمبارديون لقيادتهم سيدا يدعى « رينالد » وحذا الالمان حذوهم ، ودخلوا اقليم

(١) الواقع أن بطرس الناسك لم يكن أول الصليبيين وصولا الىالقسطنطينية ، بل سبقه جوتييه سانز أفوار الذى كان قد خرج على رأس فريق من الرعاع وسار بهم فى بلاد المجر ثم دخل بلاد الصرب فأمدهم واليها البيزنطى Nicetas بالذخيرةوالسلاح فتابعوا السير حتى بلغوا القسطنطينية يوم ٢٠ يوليو حيم أمرهم الامبراطور الكسيس كومنين بالانتظار حتى يقوم بجماعته بطرس الذى كان ذاك الوقت بعيدا عنه يستمع الى شروط الامبراطور للدخول هو ومن معه العاصمة بعد ما جرى منهم من الافعال القبيحة فى أوربة مما بغضهم الى نفوس الاهالى ، فقبل بطرس الشروط وتابع سيره حيث التقى بجوتييه سانز أفوار عند أسوار القسطنطينية ، راجع
Abbert d'Aix, Liber Christianae (R.H. Cr. Occ.), t. IV.. pp. 275-6; Grousset : Hist, des Croisades, t. I, pp. 6, 7; Runcimam: The First Crusade, vol. I, pp. 127-8.

(٢) Chalandon : Hist. de la première croisade, pp. 76-7.

(٣) Abbert d'Aix, op. cit. p. 284.

آسيا الصغرى وساروا مدة أربعة أيام وراء نيقية [ازنيق] ووجدوا قلعة اسمها Exerogorgo قد خلت من كل مدافع عنها فاستولوا عليها ، وعثروا فيها على كميات وفيرة من الميرة كالحنطة والخمر واللحوم وشتى أنواع المأكولات .

ولما علم الترك باحتلال النصارى لهذه القلعة نهضوا لمحاصرتها ، وكان أمام بابها بئر وعند سفحها نبع ماء جار ، فنصب « رينالد » بجواره كمينا لاقتناص الترك الذين وصلوا يوم عيد القديس ميخائيل(١) حيث وجدوا رينالد ورفاقه فوثبوا عليهم وفتكوا بعدد كبير منهم ، ولاذ الباقون هربا الى القلعة معتصمين بها ، لكن سرعان ما حاصرهم الترك فيها ومنعوا عنها الماء فاشتد الظمأ برجالنا شدة دفعتهم لفصد عروق جيادهم وحميرهم وشرب دمائها ، وألقى الآخرون الخرق معلقة بالخطاطيف فى الكنف وعصروها فى أفواههم ، وكان أحدهم يبول فى يد رفيقه ثم يشرب الاثنان ، وحفر بعضهم الارض الرطبة واضطجعوا فيها وهالوا التراب على صدورهم ، وهكذا وصلت شدة ظمئهم الى تلك الحال ، وأخذ الاساقفة والقساوسة يقوون عزائم رجالنا ويحضونهم على الصبر (٢) .

استمرت هذه اللجنة ثمانية أيام سويا ، ثم عقد زعيم الالمان اتفاقا مع الترك وعاهدهم فيه على أن يسلمهم رفاقه ، وتظاهر بالخروج للقتال ثم هرب اليهم ، وحذا حذوه الكثيرون فتبعوه ، ولقى المنية كل من أبى انكار السيد ، أما الذين بقوا على قيد الحياة فقد تقاسمهم العدو كأنهم الانعام السائمة ، واتخذ الترك بعضهم هدفا يفوقون اليهم

---

(١) وذلك يوم ٢٩ سبتمبر ١٠٩٦ .

(٢) هذه معلومات شاهد عيان لم ترد فى غير هذا الكتاب من تواريخ الحرب الصليبية الاولى .

سهامهم ، ومضوا يتهادون البعض ويبيعون البعض الآخر بيع الحيوان، وساقت جماعة من العدو الغنيمة الى مساكنها ، وأخذها غيرهم الى خراسان (١) وأنطاكية وحلب ، وذهب كل بها الى حيث يقيم ، وكان هذا هو الاستشهاد الكريم الذى لقيه الرجال الاوائل فى سبيل تمجيد اسم السيد يسوع .

ولما علم الترك بعد ذلك بوجود بطرس الناسك وجوتييه سانز أفوار ومن معهم فى « هرسك » الواقعة وراء « ازنيق » توجهوا نحوهم، يعلوهم البشر مؤملين القضاء عليهم كما قضوا على رفاقهم من قبل ، وفى أثناء مسيرهم التقوا بجوتييه وهو فى جماعته ، وسرعان ما انقضوا عليهم وقتلوهم (٢) ؛ أما بطرس الناسك فقد عاد الى القسطنطينية (٣) عاجزا عن تنظيم هؤلاء الجند اليائسين الذين أضحوا عازفين عنه منصرفين عن خطبه ، فكر الترك عليهم وذبحوا منهم جمعا غفيرا اذ صادفوا بعضهم مستغرقا فى نومه ، والبعض الآخر عاريا من كل شىء

---

(١) يلاحظ هنا أن الحوليات تستعمل كلمة « خراسان » استعمالا بهما ، ويذكر الاستاذ بريبيه أن جميع المؤرخين اللاتين بل والارمن يطلقون هذا اللفظ على جميع البلدان الداخلة تحت سيطرة السلاجقة كما يشير الى أن البرت ديه يذهب الى أن بغداد عاصمة خراسان .

(٢) الواقع أن ايراد الاحداث على هذه الصورة فيه شىء من الخطأ التاريخى ، ذلك أننا نجد جوتييه سانز أفوار لا يزال حيا حتى فى أثناء غيبة بطرس الناسك فى القسطنطينية ، بل أن المتخلفين بعد رحيل بطرس عقدوا مجمعا لتقرير الزحف على اجزيروجون فعارضهم جوتييه طالبا اليهم التريث حتى عودة بطرس ، ثم اجتمع الصليبيون مرة أخرى ونجح أصحاب فكرة الزحف رغم معارضة جوتييه أيضا ، فكان من جراء ذلك المذبحة التى تتحدث عنها الحوليات فى المتن وهى التى لقى فيها جوتييه مصرعه ، راجع Runciman, op. cit., p. 131.

(٣) يفسر Runciman, op. cit., loc. cit. عودة بطرس الناسك الى القسطنطينية بما كان يؤمله فى الحصول على شىء من المساعدة المادية من قبل الامبراطور، والظاهر أنه وعد رفاقه فى السلاح بعودته اليهم فى تاريخ معين .

فقتلوهم عن بكرة أبيهم ، وكان هناك قسيس يعظ فلقى الشهادة على أيديهم هو الآخر على المذبح ، أما الذين استطاعوا النجاة فقد هربوا الى « هرسك » ، وألقى بعضهم نفسه فى البحر ، ولاذ غيرهم الى الاحراج والجبال تخفيا بها فانطلق الترك فى آثارهم وكدسوا الاخشاب لحرقهم هم والمدينة معا .

غير أن النصارى الذين احتلوا المدينة أشعلوا النار فى اكداس الخشب وهب اللهب ناحية الترك ، فأهلك بعضهم حرقا ، بينما حفظ الرب رجالنا من أن تمتد اليهم تلك النيران . وأخيرا تمكن الترك من أخذهم أحياء وتقاسموهم فيما بينهم كما فعلوا مع الذين سبقوهم من قبل ، وشنقوهم فى كل النواحى ، فساقوا البعض الى خراسان ومضوا بالبعض الى فارس . وقد جرت كل هذه الحوادث فى شهر أكتوبر .

لم يكتم الامبراطور فرحه العظيم حين ذاع خبر تشتيت الترك لرجالنا وأصدر أمره بنقلهم عبر البسفور بعد أن جردهم من كل سلاح يحملونه (١) .

٣ — أما القسم الثانى فقد ولج أرض الصرب والكروات (٢) مع ريموند الصنجيلى وأسقف بوى (٣) .

---

(١) تختلف الصورة التى رسمها Albert d'Aix, op. cit., pp. 284-9 للامبراطور عن الصورة التى صوره بها صاحب المذكرات بالمتن ، اذ أنها هناك أكثر انصافا مما يتفق والوضع التاريخى .

(٢) فيما يتعلق بخط سير هذه الحملة حتى بلوغها القسطنطينية راجع Raymond d'Aguiles Historia Francorum qui ceperunt Jerusalem (R.H. Occ. Cr.) t. III, p. 235 seq.

(٣) هو الاسقف Adhemar de Monteil الذى اختاره البابا — عن قصد — نائبا عنه فى القيادة العليا لهذه الحملة .

أما القسم الثالث فقد سار فى الطريق القديم المؤدى الى رومة(١)، وكان فى هذا الفريق بوهيمند [بن روبرت جسكارد] وريتشارد (٢) السالرنى وروبرت كونت فلاندر ، وروبربرت النرمندى (٣) وهيج (٤) الكبير وايفراد دى بواسيه ، وأكاد دى مونتمربل وايزور موزون ، وكثيرون غيرهم (٥) فذهب البعض الى ميناء برنديزى ، والبعض الآخر الى بارى ، وسواهم الى أترانتو .

أبحر هيج الكبير ووليم بن المركيز [أخو تنكريد] الى بارى ، وأرسو فى دورازو التى ما كاد واليها يعلم بخبر رسو هذين الرجلين العظيمين حتى دبر لهما فيما بينه وبين نفسه خطة دنيئة ، اذ ألقى القبض عليهما واهتم بترحيلهما الى القسطنطينية ليمثلا أمام الامبراطور وليقسما له يمين الولاء (٦) .

---

(١) فيما يتعلق بهذا الطريق التقليدى القديم للحجاج راجع
J. Bedier; les legendes épiques, t. II, p. 142 seq.

(٢) هو ريتشارد بن وليم روبرت جسكارد ، راجع عنه
Gay : L'Italie meridionale et l'Emprie Byzantin, p. 505.

(٣) هو الابن البكر لوليم الفاتح وكان قد ورث دوقية نرمنديا سنة ١٠٨٧ ، وقد انضم اليه ستيفن (أو ايتين فى المراجع الفرنسية) كونت بلوا Blois الذى كان قد تزوج من أخت وليم واسمها Adela وكان ستيفن هذا من أغنى أثرياء فرنسا ولذلك كان اعتماد روبرت عليه الى حد كبير فى الاموال التى احتاجها لتجنيد المحاربين .

(٤) هو هيج كونت Vermandois اخو ملك فرنسا فيليب الاول ، راجع عنه فى هذه الناحية Albert d'Axis op. cit., p. 53 والواقع أن نعته بالكبير خطأ وقع فيه الكتاب والمؤرخون الغربيون حتى فى عصره فهو Le maisné أى الاصغر لانه كان أصغر أبناء هنرى الاول ملك فرنسا وكانت أمه كييف الاسكندناوية الاصل ؛ راجع عن دوره فى هذه الحرب
Leib : Kiev, Rome et Byzance, p. 219.

(٥) يلاحظ أنه ممن صحب هذه الحملة فولخر الذى سجل فيما بعد أخبارها .

(٦) الوارد فى حوليات ذلك العصر يخالف المذكور فى المتن أعلاه ، اذ خلت تلك الحوليات من الاشارة الى مثل هذه الخطة التى يزعم مؤرخنا أن يوحنا كومنين ابن أخى الامبراطور ونائبه على دورازو قد دبرها للقائدين النرمنديين ، راجع فى تحقيق ذلك :
Runciman, op. cit., p. 168; Brehier, op. cit., p. 15, note 10.

أخيرا وصل الى القسطنطينية الدوق جودفروى مقدم جميع السادة على رأس جيش لجب . وكان بلوغه أياها قبل ميلاد سيدنا بيومين ، وظل مقيما بمعسكره بظاهر المدينة حتى أذن له الامبراطور الظالم بالاقامة فى احدى ضواحى المدينة ، ولما كان الدوق باقيا حيث أمر فقد اعتاد أن يرسل رجاله يوميا فى هدوء ليجلبوا التبن وكل ما يلزم للجياد ، وكان رجاله يظنون أن فى استطاعتهم الذهاب آمنين أنى شاءوا ، الا أن الامبراطور الغادر ألكسيس أمر من لديه من الدركيولية والمرتزقة بمهاجمتهم وقتلهم أنى ثقفوهم (١) ، فلما تناهى ذلك الخبر الى بلدوين — أخى الدوق — كمن [لجند الامبراطور] فى الطريق وباغتهم وهم قاصدون القضاء على رجاله واستبسل فى الهجوم عليهم وأيده الرب بظهوره عليهم ، فأسر منهم ستين رجلا غير من قتلهم وجاء بالباقين الى أخيه الدوق .

استبد الغضب بالامبراطور حين استطار اليه نبأ هذه الحوادث ، فلما رآه الدوق ساخطا متخشن الصدر غادر تلك الضاحية برجاله وعسكروا خارج المدينة ، فلما أرخى الليل سدوله أصدر الامبراطور التعيس أمره الى قواته بمهاجمة الدوق والجماعة النصرانية ، فتتبعهم الدوق على رأس جنود المسيح وانتصر عليهم وقتل منهم سبعة وطارد الباقين حتى باب المدينة ، ومن ثم عاد الى معسكره ولزمه خمسة أيام (٢) مستجما ، ثم عقد موادعة (٣) مع الامبراطور الذى حثه على

---

(١) الواقع أن صاحب الحوليات لم يشر كما أشار Brehiér, op. cit., p. 17 note 2 الى السبب الذى من أجله وقف الامبراطور هذا الموقف العدائى ، فالثابت أن مبعثه هو محاولاته المتكررة لحمل جودفروى على قطع يمين الولاء له ولكنه فشل فى ذلك ، راجع Albert d'Axis, op. cit., p. 306-7; Girousset, op. cit., t. I, p. 16; Runciman, op. cit., I, pp. 149-50.

(٢) Albert d'Axi, p. 150. حيث أورد فيه التاريخ ١٢ يناير .

(٣) بشأن هذه المفاوضات راجع Albert d'Aix, op. cit., loc.

مغادرة مضيق سنت جورج (١) ، وأذن له أن يتزود بالذخيرة جهد ما تسمح موارد القسطنطينية ، كما تسلم منه صدقة يستعين بها على اعاشة الفقراء .

٤ — أما بوهميند المنصور الذى كان موجودا اذ ذاك فى حصار جسر سكافارد بأمالفى فقد علم بمقدم جماعة مسيحية من الفرنجة لا يحصيها العد ، وأنها عزمت على المضى الى ضريح السيد ، وأقسمت على شن الغارة على الشعب الوثنى ، فجد بوهيمند فى الاستفسار عن نوع السلاح الذى تستعمله هذه الطائفة فى القتال وعن الشعارالمسيحى الذى تحمله فى الطريق وعن هتاف التجمع الذى تهتف به فى المعارك ، فقيل لهم « انهم يستعملون سلاحا ملائما للحرب ، ويحملون صليب المسيح على أحد الكتفين أو فيما بينهما ، وأما هتافهم الذى يرددونه جميعا فى نفس واحد فهو : هكذا أراد الله ! ، هكذا أراد الله ! ، هكذا أراد الله ! » وفى الحال امتلأ بوهيمند بالروح القدس وأمر بتجزئة عباءة ثمينة كان يرتديها الى أجزاء صغيرة وان تعمل صلبانا (٢) .

حينذاك انطلق الفريق الاعظم من الفرسان المحاصرين للمدينة فى صولة شديدة وانضموا الى جانبه ، حتى ان الكونت « روجار » كاد أن يبقى وحيدا ، وعاد الى صقلية شاكيا واغتم لضياع كل جيشه (٣) .

= cit; Guill de Tyre, Eracle, pp. 87-88. وبمقتضاها أقسم جودفروى ومن معه من الافضل واللوردات باعتبار أن الامبراطور هو الحاكم الاعلى لكل الفتوح التى ... بها وأن يسلموا عمال الامبراطور جميع الاراضى التى كانت ملكا من قبل لبيزنطة .

(١) يعنى بذلك مضيق البسفور .

(٢) Cf. Chalandon, Hist. de la Domination Normande Italie, t. II, p 302.

(٣) تفسير ماورد بالمتن هو أن أهل أمالفى كانوا قد تمردوا على الحكم النرمندى وأدرك النرمنديون ما وراء هذا التمرد من خطر على سلطانهم ، فتناسوا ما بينهم من المنازعات الشخصية فخرجت الاسرة بأكملها لمحاربة المتمردين وحاصرتهم حتى بلغت =

ولما عاد السيد بوهيمند الى أملاكه (١) استعد بكل ما فى طوقه للتوجه الى الضريح المقدس ؛ وأخيرا ركب البحر بجيشه وفى صحبته تنكريد بن المركيز والامير ريتشارد وأخوه رينول ، وروبرت أنز ، وهرمان دى كانى ، روبرت سورديفال ، وروبرت بن توستانى ، وهنفرى بن رودلف ، وريتشارد بن الكونت رينوف ، وكونت رسبولو واخوته : بوبل دى شارترز ، وأوبريه دى جانيانو ، والهنفرى دى مونت سسكيابوزو . وعبر الجميع البحر على نفقة بوهميند وأرسو فى بلغاريا حيث وجدوا وفرة بالغة من الحنطة والخمر وجميع الاطعمة النافعة .

ثم نزلوا عقب ذلك فى وادى « أندرونو بوليس » وأقاموا فى انتظار عبور بقية الجيش ، وحينذاك أخذ بوهيمند فى مشاورة جيشه وتشجيع رجاله ، وحضهم على الطيبة والتواضع والكف عن تخريب تلك البلاد التابعة للنصارى ، وأمرهم ألا يأخذوا أشياء أزيد مما يحتاجون اليها فى معاشهم .

آن وقت الرحيل ، فخرجنا (٢) فى العدد الجم نسير من مقاطعة ، ومن مدنة الى مدينة ، ومن قلعة الى قلعة ، وأفضى بنا السير الى Castoria فاحتفينا فيها احتفاء رائعا بميلاد السيد المسيح ، ولبثنا بها بضعة أيام باحثين فيها عما نتزود به ، غير أن أهلها أبوا علينا ذلك لشدة تخوفهم (٣) منا ولم ينظروا الينا نظرهم الى حجاج بل خيل اليهم أننا طامعون فى تخريب أرضهم قادمون الفتك بهم ، فاستولينا على

القوات الصليبية الفرنسية أمالفى ، فما كان من بوهيمند ـ وقد أدرك جدوى الحرب الصليبية من منفعة شخصية له الا أن قسم عباءته أجزاء صغيرة لتكون صلبانا لقواده ، فانضم اليه فى الحال كثيرون من قواد أخيه روجر بورسا وعمه روجر صاحب صقلية راجع Chalandon, op. cit., loc. cit.,

(١) كان بوهيمند أمير على تارنت واترانتو من أعمال ايطاليا ، راجع Chalandon, op. cit., t. I, p. 288.

(٢) يلاحظ هنا استعمال ضمير المتكلم .

(٣) راجع تفصيل ذلك فى Runciman, op. cit., pp. 155-6.

الثيران والخيل والحمير ، وعلى كل ما وجدناه فى طريقنا ، فلما غادرنا « كستوريا » دخلنا اقليم Pelagonie حيث توجد قرية من قرى الملاحدة هاجمناها من جميع نواحيها ، وسرعان ما سقطت فى أيدينا ثم أضرمنا بها النار وأحرقناها بسكانها ودمرناها تدميرا .

بلغنا بعدئذ نهر « الوردار » (١) ، واذاك تابع السيد بوهيمند زحفه مع جزء من جنده وذلك لانفصال الكونت روسينولو واستقراره هناك مع اخوته ، وجاء الجيش الامبراطورى وهاجم الكونت كما هاجم اخوته وجميع من كانوا معهم .

ارتد تنكريد على أعقابه عندما سمع بهذا الخبر وعبر النهر سباحة وانضم الى رفاقه ، وتبعه ألفان من الرجال اقتدوا به فى عبور النهر . فوجدوا الدركيبولية والمرتزقة يقاتلون رجالنا ، فباغتوهم واستبسلوا فى الهجوم عليهم حتى أعيوهم ، ثم أسروا جماعة منهم وقادوهم مشدودى الوثاق الى حضرة السيد بوهيمند الذى قال لهم (٢) « ما الذى حملكم أيها الاشقياء على قتل جند المسيح الذين هم جندى، مع اننى لم أناجز قط امبراطوركم العداء ؟ » . فأجابوه « ما كان لنا ان نقرر غير الواقع . لقداستؤجرنا لحساب الامبراطور ، وما لنا الا أن ننجز كل ما يأمرنا به » فأذن لهم بوهيمند بالانصراف دون أن يقتص منهم . وقد جرت هذه الوقعة فى اليوم الرابع من أول أسبوع صوم الاربعين (١) .

مبارك هو الرب دائما .

آمين !

---

(1) Cf. Th. Desderises du Deszert : Geographie ancienne de la Macedoine (Paris, 1863), p. 214.

(2) Cf. Raoul de Caen : Gesta Tancredi Siciliae, (R.H. Occ. Cr.), t. III, pp. 607-10.

(٣) وكان ذلك يوم الاربعاء ١٨ فبراير ١٠٩٧ بتحقيق Brehier : Hist. anonyme, p. 24, note 4.

— ٢ —

من وقعة الوردار الى الاستيلاء على نيقية

سير نرمان ايطاليا ورحيل بوهيمند للقسطنطينية، الزعماء الصليبيون في القسطنطينية • يمين الولاء . وصولهم الى نيقية • حصار نيقية والاستيلاء عليها.

٥ — بعث الامبراطور في الوقت ذاته الى سفرائنا أحد رجاله وكان يوليه مكانة سامية وممن يسمونهم مواليه ليرشدنا الى السبل الآمنة في جميع بلاده حتى نبلغ القسطنطينية ، وفي اثناء مرورنا امام بلدانه كان يأمر سكانها بأن يحملوا الينا الاقوات كما فعل أولئك الذين تكلمنا عنهم من قبل ، والواقع أن هؤلاء السكان كان قد استبد بهم الخوف من عسكر السيد بوهيمند الشجعان حتى انهم لم يسمحوا لاحد منا بمجاوزة أسوار مدنهم ، وحدث في ذات مرة أن أراد رجالنا مهاجمة أحد الامكنة الحصينة ، والاستيلاء عليها بحجة احتوائه على الذخائر الوفيرة ، فرفض بوهيمند العاقل طلبهم وأنكر عليهم أن يجاوزا مكانهم برا بعهده (١) المقطوع للامبراطور وغضب أشد الغضب على تنكرير (٢)

---

(١) يذهب Chalandon : Alexis Comnéne, p. 188. الى أن هناك اتفاقية لابد وأن تكون قد عقدت بين الامبراطور البيزنطي والقائد النرمندي بوهيمند في أواسط شهر مايو ١٠٩٧ ، وعلى ضوء هذه الفكرة الجديدة يمكن تفسير مسلك بوهيمند الوادي الذي يشير اليه صاحب المذكرات في المتن ، على أنه يتبين مما بعد أن في منتصف مايو كان الصليبيون وفيهم بوهيمند يهاجمون نيقية .

(٢) يشير Raoul de Caen, pp. 612-17. الى المخاشنة بين بوهيمند وتنكريد دون ان يشير الى الحامل عليها مما فسره صاحب الحوليات هنا .

وعلى بقية الآخرين ، وجرت هذه الحادثة مساء ، ولما تبلج الغد عن صباحه خرج سكان البلد يطوفون بأرجائه وقد حملوا الصليب فى أيديهم ، ومثلوا أمام بوهيمند الذى تلقاهم بالترحاب والسرور ، ثم صرفهم من لدنه فرحين مغتبطين هادئى البال

بلغنا بعد ذلك مدينة تدعى Serra (١) نصبنا فيهـا خيمنا ووجدنا بها كمية وفيرة من الذخيرة الملائمة لهذا الفصل ، وهنا عقد بوهميند اتفاقا (٢) مع اثنين من كبار رجال الدولة الرسميين ، دفعه حبه لهما وكذلك رغبته للمحافظة على سلامة الارض لاصدار أمره الى رجالنا برد جميع الحيوانات التى أخذوها نهبا ، وأدركنا بعدئذ بلدة "Rusa" (٣) فخرج أهلها الاغريق بأجمعهم للترحيب بنا ، ومضوا فرحين لتلقى السيد بوهيمند ، حاملين الينا الكثير من المؤونة ، ونصبنا بها خيامنا يوم الاربعاء [المقـدس] السابق لعشـاء السـيد السرى الاخير (٤) ، وهناك ترك بوهيمند كل جيشه غير مستصحب معه سوى شرذمة ضئيلة من الفرسان ، وخلف تانكريد على راس جند المسيح ، ولما رأى تانكريد أن الحجاج يشترون الاطعمة تعهد من ناحيته بالابتعاد عن الطريق الرئيسى ، وسوق الشعب الى مكان يستطيع ان يجد فيه الطعام بوفرة ، فتوغل فى واد مجهز بكل ما هو لازم للعيش ، واحتفلنا فيه احتفالا عظيما بعيد القيامه (٥) .

---

(١) وتقع فى مقدونيا الشرقية .

(٢) فيما يتعلق بهذا الاتفاق راجع Raoul de Caen : op. cit., pp. 611-2. وكان بوهيمند فى أثناء اجتيازه لسالونيكا أراد تحسين العلاقات بينه وبين الامبراطور فأوفد اليه سفارة من قبله عادت اليه وهو فى مدينة سرا هذه .

(٣) يشير Runciman, op. cit., I, p. 157 الى أنها تسمى الآن Keshan وكان وصوله اليها يوم أول أبريل ١٠٩٧ .

(٤) هو يوم أول أبريل ١٠٩٧ .

(٥) وذلك يوم ١٥ أبريل ١٠٩٧ .

٦ — حين علم الامبراطور بأن بوهيمند المعظم الجليل وافد عليه أمر بمبالغة الاحتفاء باستقباله ، وانزاله منزلا كريما خارج المدينة (١) فلما استقر به المقام ، ونفض عنه غبار السفر بعث الامبراطور اليه يسأله القدوم عليه لمفاوضته سرا واشترك في هذه المقابلة ايضا كل من جودفروى وأخيه [بلدوين] وحينذاك كان كونت صنجيل قد اقترب من المدينة (٢) ، فقلق الامبراطور اشد القلق وتميز غضبا ، وأخذيدبر مكيدة تمكنه من تسخيرجند المسيح لصالحه ، سواء كان ذلك عنطريق المكيدة أو الخداع ، غير أن العناية الالهية صرفت عنهم كل أذى فلم تمكنه هو و رجاله من ايقاع ادنى ضر بهم ، وفي هذا الوقت بالذات [الذى كان فيه بوهيمند وجودفروى بحضرة الامبراطور] التأم فيمكان آخر شمل جميع الرجال الكرام الاصل (٣) الموجودين بالقسطنطينية ، وخافوا أن يفقدوا بلدهم فدبروا أمورا غيرحكيمة،وتخلوا أن يقسمزعماء جيشنا والكونتات وجميع العظماء قاطبة يمين الولاء للامبراطور ، غير ان رجالنا رفضوا هذا العرض قائلين لهم ، « ان هذا أمر مزر بنا ، ولا يجوز لنا أننقسم له اليمين مهما كانت الحال فلربما يخدعنازعماؤنا هؤلاء ، فمن ذا الذى يقرر هذا الامر ؟ وسيقولون حينذاك انالضرورة الملحة حملتهم على الخضوع امام مشيئة الامبراطور » .

---

(١) وذلك في دير القديسين كوم وداميين قرب بلاشرناى ، راجع في تحقيق هذا Brehier : op. cit., p. 29, note 4 (d'après Anne Comnène, Alexiade, pp. 86-96).

(٢) Raymond d'Aguiles, pp. 235-8.

(٣) في الاصل اللاتيني (omnes majores natu) أى الكرام الاصل ، وقد فسرها Brehièr : op. cit., p. 30, note 1 بأصحاب الوظائف الكبرى .

وقد وعد الامبراطور بوهيمند الشجاع — الذى كان يخافه كثيرا لانه فر أكثر من مرة بجيشه من أمامه — أن يقطعه أرضا وراء انطاكية تمتد مسيرة خمسة عشر يوما طولا وثمانية أيام عرضا اذا أقسم بوهيمند للامبراطور يمين الولاء دون رجاء ، وعاهده الامبراطور أنه لن ينسى أبدا وعده اليه طالما هو مقيم على يمينه (١) . . . ، واذن فكيف تصرف هؤلاء الفرسان الشجعان القساة هذا التصرف ؟ لا شك فى أن الحاجة الملحة كانت تجبرهم على قبول ذلك .

ووعد الامبراطور من جانبه جميع رجالنا الوفاء بما عاهد ، وأن يضمن لهم السلامة بل لقد أقسم هو نفسه أنه سيرافقنا بجيشه برا وبحرا ، وأنه يضمن — فى اخلاص — تموينا على اليابسة وفوق ظهر الماء ، وأنه سيعمل من جانبه على تدارك جميع خسائرنا ، وزيادةعلى ذلك فانه لا يحب أن يشعر أحد من الحجاج — وهم فى طريقهم الى الضريح المقدس — بشىء من الملل أو الضيق .

أما كونت صنجيل فكان مقيما فى ذلك الحين بظاهر المدينة فى احدى الدساكر وبقى جيشه معسكرا فى الخلف (٢) ، وبعث الامبراطور الى الكونت يطلب منه أن يقسم له كما أقسم الاخرون يمين الولاء والتبعية ، غير أنه فى اللحظة التى أرسل فيها الامبراطور هذه الرسالة كان الكونت قد فكر فيما يستطيع عمله للثأر من الجيش الامبراطورى ، فأفهمه الدوق جودفروى وروبرت كونت فلاندر وبقية الامراء أن ليس من العدل

---

(١) يتشكك Kray, Neglected Passage, p. 27-8 فى هذه الجملة ويقول انها مدسوسة على الجستا وأنها وضعت بناء على أوامر بوهيمند .

(٢) Raimond d'Aguiles, p. 238.

أن يمتشق الحسام ويستله لمحاربة النصارى (١) ، وأضاف بوهيمند الغافل الى ذلك قوله انه اذا ارتكب [كونت تولوز] أى تعد ضد الامبراطور وخالف ما تعهد الزعماء له بالوفاء فان بوهيمند ذاته سيقف فى صف الامبراطور ، ومن ثم مضى الكونت لاستشارة رجاله ثم عاد فأقسم على المحافظة على حياة الكسيس واحترام مكانته وشرفه وأنه لن يسمح مطلقا بأية اساءة تناله سواء أكانت هذه الاساءة من قبله هو أم من قبل أحد رجاله ، لكنه حينما دعى (٢) الى الحفل الذى أقيم احتفاء بما قطعه الامراء من عهد « الولاء » للامبراطور أجاب انه لن يستجيب لهذه الدعوة أبدا حتى ولو ادى رفضه الى قتله وهلاكه، وفى هذه اللحظة بالذات(٣) كان جيش بوهيمند قد اقترب من القسطنطينية .

٧ — ولكى يتجنب كل من تانكريد وريتشارد السالرنى القسم الامبراطورى تسلل كلاهما وعبرا البسفور (٤) سرا مستصحبين معهما جلة عسكر بوهيمند ، وسرعان ما بلغ جيش كونت صنجيل القسطنطينية ومكث الكونت بها هو ورجاله ، وبقى بوهيمند أيضا لدى الامبراطور ليتشاور واياه حول الوسائل التى يقتضى اتخاذها لتيسير تمرير القوات الموجودة فيما وراء أزنيق ، وذهب الدوق جودفروى أولا الى نيقوميديا مع تانكريد وبقية الاخرين ولبثوا بها ثلاثة أيام .

---

(١) Ibid., p. 238.

(٢) يستناد لما أورده Albert d'Axis, p. 312. أن تلك الدعوة كانت يوم ٢٦ ابريل ١٠٩٧ وذلك فى معرض كلامه عن اقتراب جيش بوهيمند من القسطنطينية .

(٣) وذلك يوم ٢٦ ابريل ، راجع الحاشية السالفة .

(٤) Albert d'Axi, p. 313; Raoul de Caen, pp. 612-614.

ولما أدرك الدوق [جود فروى] أن ليس امامه من سبيل يستطيع أن يقود فيه هذه القوات الى أزنيق نظرا الى أن الطريق الذى عبر الصليبيون الاوائل فى المرة الاولى لا يلائم جماعة كثيفة العدد كهـــذه الجماعة ، أقول لما أدرك الدوق ذلك قدم أمام الجيش ربيئة فى ثلاثة آلاف رجل مسلحين بالفئوس والسيوف ، ووكل اليهم تعبيد هذا الطريق وتوسيعه ليتمكن حجاجنا من اجتيازه الى أزنيق ، فشقوا طريقا عبر مضايق أحد الجبال الضخمة ، وفى أثناء عملهم هذا صنعوا صلبانا من الحديد والخشب نصبوها على ضوى لتكون دليلا يسترشد به حجاجنا ومن ثم وصلنا قرب أزنيق عاصمة كل بلاد آسيا الصغرى وذلك فى اليوم السادس من مايو ، وأقمنا هنا معسكرنا .

❋ ❋ ❋

وقبل وصول بوهيمند مضينا نلتمس الخبز فلا نجده الا صبابة ، حتى لقد كان الرغيف الواحد يباع بعشرين أو ثلاثين دنية (١) ، فلما قدم بوهيمند العاقل جلب معه بطريق البحر ذخيرة وفيرة ، وتوالت الامدادات على اليابسة والماء (٢) ، فشـــملت الفرحة الكبرى جيش المسيح .

٨ — وفى يوم صعود السيد (٣) شرعنا فى مهاجمة المدينة من جميع نواحيها ببناء كباش (٤) وأبراج خشبية لنتمكن من هدم أبراج المنطقة

---

(١) النص اللاتينى هكذا : tanta inopia panis fuit inter nos ut unus : panis Venderetur xx aut xxx denariis

أما هذه العملة فقد ظهرت منذ العصر الكارولنجى .

(٢) هذه اشارة من الكاتب الى وفاء الامبراطور بما تعهد به لبوهيمند .

(٣) وذلك يوم ١٤ مايو ١٠٩٧ .

(٤) تذهب آنا كومنين كما جاء فى Brehiér : Histoire Anonyme, p. 36 note 3

أن آلات الحصار هذه انما قدمها الامبراطور ولم تكن من صنع الصليبيين ، راجع أيضا Grousset : Histoire des Groisades, t. I, p. 29.

وتمكنا فى خلال فترة يومين من الاقتراب من المدينة بشجاعة وحماسة حتى قوضنا حيطانها ودككنا أسوارها دكا . أما الترك الذين كانوا فى المدينة فقد بعثوا رسالة (١) لمن قدموا لنجدة البلد وختموها بقولهم « أقدموا غير هيابين ، واقتربوا آمنين وادخلوا من الباب القبلى لانكم لن تجدوا فى هذه الناحية احدا ما يعترض سبيلكم أو يقف فى طريقكم » .

وفى اليوم ذاته (٢) أعنى يوم السبت الذى تلك صعود السيد احتل كونت صنجيل وأسقف بوى هذه الناحية القبلية ، أما هذا الكونت القادم من ناحية أخرى (٣) والذى ترعاه العناية الربانية ويزهى بأسلحته الدنيوية فقد خرج على رأس جيشه الباسل ، وكر على الترك الذين كانوا يتقدمون نحونا ، ولما كان ريموند مسلحا من جميع الجهات (٤) بعلامة الصليب فقد اشتد فى الهجوم عليهم وكر عليهم كرة باسل وتمكن من قهرهم والظهور عليهم ، فلاذوا بالفرار مخلفين وراءهم كثيرين من الموتى ، غير أن جماعة أخرى من الترك أقبلوا لنجدة الاولين ونفوسهم تفيض بالسرور والفرح بالنصر المحقق ، واحضروا معهم الحبال ليسحبونا مصفدين بها الى خراسانان ، ولما كانوا فى شدة النشوة فقد شرعوا فى النزول بالتتابع من ذروة تل مرتفع ، لكنهم كانوا كلما نزلوا واستقروا

---

(١) يلاحظ أن قليج أرسلان سلطان نيقية كان مشغولا فى هذا الوقت بالذات بمحاربة بيت دانشمند حول ملطية ، ولذلك لم تصل جنوده لنجدة نيقية الا متأخرة . راجع :

Michel le Syrien, p. 187, Mathiew d'Edesse, pp. 211-2, 215.

(٢) الوارد فى Foulcher des Chartres, p. 182 انه فى يوم ١٦ مايو ١٠٩٧ .

(٣) يقصد بهذا أن كلا من الكونت ريموند الصنجيلى وأديمار دى مونتيل أسقف دى بوى كانا على رأس عسكر مستقل .

(٤) فى النص اللاتينى undi que وقد فسرها بربييه بأن الكونت كان يضع كثيرا من الصلبان على ملابسه على حين أن سواه من المحاربين اكتفوا — كما هو معروف — بصليب واحد على أحد الكتفين أو فيما بينهما .

فى مكان ضربت أعناقهم بأيدى رجالنا الذين أخذوا يضعون رءوس القتلى فى المقاليع ثم يقذفون بها الى المدينة ليبثوا الذعر بين سكانها الاتراك (١) .

بعد ذلك أخذ كونت صنجيل وأسقف بوى يتبادلان الرأى فى الوسائل التى تمكنهم من هدم برج قائم أمام معسكراتهم ، واتفق الرأى على انقاذ فريق من الرجال لهدمه ، يحميهم حاملو الاقواس ورماة النشاب ، فنهض الرجال لما ندبوا له وشرعوا فى الحفر حتى بلغوا أساس السور ، وأقاموا أكواما من الكتل والخشب ثم أضرموا فيها النيران ، فلما أقبل المساء انهار البرج ، غير ان رحى القتال وقفت بين المتحاربين اذ كان الظلام قد لف الكون فى سدوله اذ ذاك ، فاغتنم الترك هذه الفرصة وخرجوا بقطع من الليل ورمموا الحائط ترميما قويا ، حتى اذا ذر النهار قرنه ، أصبح من المستحيل علينا أن ننالهم بأدنى أذى من تلك الناحية .

سرعان ما وصل روبرت [كونت هيوز] النرمندى والكونت ايتين (٢) وكثيرون غيرهما ، ثم روجر دى بارنفيل ، فحاصر بوهيمند المدينة من الناحية الامامية ، ووقف الى جانبه تنكريد ، ثم أقبل الدوق جودفروى وكونت فلاندر يعاونه روبرت دوق نرمنديا ، ثم الكونت صنجيل ومعه أسقف بوى ، وبلغ الحصار الذى ضرب على المدينة من ناحية البر حدا من الشدة لم يستطع أحد ما معه من الخروج من المدينة أو الدخول اليها ، وفى هذه اللحظة وقف الجميع وقفة رجل واحد ، فمن ذا الذى يستطيع احصاء جيش المسيح ؟

---

(١) Cf. Raymond d'Aguiles, p. 239, Albert d'Aix, pp. 319-321.

(٢) هو ايتين أو استيفن كونت بلوا وزوج اديلا ابنة وليم الفاتح .

طن أنه لم يتأت ولن يتأتى لاحد ما أن يبصر مثل هذا العدد الكثيف من الفرسان (١) وهم فى غاية التأهب والاستعداد !

بيد أنه كان يوجد فى أحدى نواحى المدينة بحيرة عظيمة (٢) قـــد أرسى الترك فيها قواربهم ، ومن ثم كان فى قدرتهم الخروج والعودة محملين بالعلف والخشب وغير ذلك من الغلات ، وبعد أن عقد زعماؤنا مؤتمرا للتشاور فيما بينهم أرسلوا الى القسطنطينية الرسل وكلفوهم دعوة الامبراطور لانفاذ السفن الى شفتوت حيث يوجد بهاميناء، وطلبوا اليه أن يأمر بجمع الثيران وسوقها عبر الجبال والغابات الى مقربة من البحيرة ، وسرعان ما تم ذلك فى الحال وأرسل الامبراطور فى الوقت ذاته مرتزقته (٣) ولم ير القوم انزال القوارب فى الماء يوم وصولها بالذات بل أنزلوها البحيرة حين أقبل الليل ، فاعتلاها المرتزقة وهم فى كامـل سلاحهم ، فلما تنفس الفجر شوهدت القوارب الصغيرة وهى فىأحسن نظام تجدف وسط البحيرة متجهة شطر المدينة ، فما كادت عيون الترك تقع على هذا المنظر حتى استولت عليهم الحـــيرة وتساءلوا « أتراها لقومهم أم لرجال الامبراطور ؟ » وما كادوا يعلمون أنها نجدة امبراطورية حتى استبد بهم الرعب القاتل واستخرطوا فى البكاء ، وعلت أصواتهم بالنحيب ، بينما كان الفرانجة فرحين يمجدون الرب .

---

(١) قدرهم Foulcher de Chartres, p. 333 بمائة ألف فارس غير من كان هناك من بقية المقاتلين ، وهو عدد يجب أن ينظر اليه بعين التشكك .

(٢) وهى بحيرة ازنيق الواقعة الى الجنوب من مدينة نيقية ، وتسمى أحيـــانا Ascemus راجع فى ذلك Raymond d'Aguiles., pp. 339-40; Albert d'Aix pp. 323-4,

(٣) تذهب أناكومنين — بناء على ما ورد فى Runciman, History of the Crusades, vol. I, p. 180, n. 2 الى أن أباها الامبراطور أرسل قوات بيزنطية بقيادة Taticius , Tzitas نجدةللصليبيين ، وهذا يخالف ما أشار اليه Brehier, op. cit., فى تعليقه على العبارة الواردة بالمتن حيث ذكر أن هذه النجدة كانت بقيادة مانويل بوتوميتس الذى كان فى الواقع مشرفا على النجدة البحرية

ولما أيقن الترك فى النهاية أنهم لن يستطيعوا تلقى أية نجدة من جيوشهم بعثوا الى الامبراطور سفارة تحمل اليه استعدادهم لتسليمه البلد اذا سمح لهم بالعودة بنسائهم وأطفالهم وجميع ما يملكون ، فازدهى الامبراطور غرورا ودفعه سوء الطوية الى الامر باخراجهم سالمين ، وارسالهم آمنين مطمئنين الى القسطنطينية للمثول أمام حضرته ، وعاملهم باللين ليكونوا على أتم أهبة لنصب الكمائن للفرنجة ووضع العقبات فى سبيلهم (١) .

استمر هذا الحصار سبعة أسابيع وثلاثة أيام (٢) واستشهد فيه كثير من رجالنا وصعدت أرواحهم الطاهرة الى الله مغتبطة جذلى ، ومات كثير من الفقراء جوعا فى سبيل تمجيد اسم المسيح ، وصعدت نفوسهم منتصرة الى السماء مرتدية ثياب الشهادة (٣) البيضاء وهى تهتف كلها فى صوت واحد « حتى متى أيها السيد القدوس الحق لا تقضى وتنتقم لدمائنا من الساكنين على الارض ، أنت يا من تستحق مدائحنا جيلا بعد جيل ، لك المجد (٤) آمنين ! » .

(١) فيما يتعلق بمسلك الامبراطور ازاء الصليبيين راجع
Foucher des Chartres, p. 333; Raymond d'Aguiles, pp. 239-40.

(٢) من ٦ مايو الى ٢٦ يونيو .

(٣) راجع رؤيا يوحنا اللاهوتى ، ٦ : ٩ ، ١١ ، ٧ : ٩ .

(٤) رؤيا يوحنا اللاهوتى ، ٦ : ١٠ .

— ٣ —

زحف الصليبيين فى آسيا الصغرى

وقعة اسكى شهر (أول يوليو ١٠٩٧ م)

٩ — فى هذه الاثناء — وقد استسلم البلد — كان الترك سائرين الى القسطنطينية لملاقاة الامبراطور الذى تزايدت فرحته لعودة ازنيق الى سلطانه فوزع كثيرا من الصدقات على فقرائنا (١) .

وفى اليوم الاول لمغادرتنا البلد وصلنا الى جسر (٢) استرحنا عنده مدة يومين ، وفى اليوم الثالث استيقظ رجالنا قبل انبلاج تباشير الفجر حيث كان الليل لا يزال مرخيا أسداله على الكون ، ولم يستطيعوا شق نفس الطريق معا فانقسموا فريقين كانت المسافة الفاصلة بينهما تقدر بمسيرة يومين ولقد رحل مع الفريق الاول بوهيمند وروبرت دوق نرمنديا وتنكريد الحكيم وكثيرون غيرهم .

وفى اليوم الثالث كر الترك كرة عنيفة على بوهيمند ورفاقه وشرع الاعداء يصرون على أسنانهم ويصرخون صرخات عالية مدوية وهم

---

(١) وزع الامبراطور كثيرا من الصدقات والخلع على الفقراء والفرسان على السواء راجع فى ذلك : Foucher, p. 333; Epistulae et Chartae p. 145.

(٢) يسمى بجسر جكسو ويقع عند بلدة Leuce وهنا عقد الصليبيون مؤتمرا للتشاور وأن لم يشر اليه صاحب المذكرات ، ويؤكد Runciman, History of the Crusades, vol. I, pp. 186-7, note 1. بعد تحقيقه الشخصى أن الوقعة لم تكن فى اسكى شهر (دوريليم) وانما فى سهل سارى سو Sari-Su راجع أيضا مقالتى دانشمندية واسكى شهر فى الدائرة .

يرددون بلسانهم كلمة شيطانية (١) لا أعرفها ، فلما رأى بوهيمند الحكيم هذه الكثرة من الاتراك مدفوعين وهم يزمجرون فى صوت من به مس من الشيطان بادر الى ارجال الفرسان من على دوابهم ، وأسرع فى نصب الخيمة التى قبل أن يتم اقامتها أعاد قوله على جميع الفرسان « أيها المبجلون ويا فرسان المسيح الاشاوس ، هانحن أولاء الان فى انتظار معركة صعبة فاصلة والعدو محدق بنا من كل جانب ، ومن ثم فليمض الفرسان قدما الى اليمين فى شجاعة ، وليبادر الرجالة الى نصب الخيام وليكن رائدهم العقل » .

فلما تم الفراغ من ذلك كله أحاط بنا الترك من كل جانب واخذوا فى قتالنا ورمينا بالحراب ورشقنا بالنبال من مسافة بعيدة عجيبة ، فأجمعنا أمرنا على الخروج لصدهم رغم عدم قدرتنا على مقاومتهم وعجزنا عن احتمال وطأة هذا العدد الغفير من الاعداء ؛ بل ان نساءنا أسدين الينا فى ذلك اليوم معونة عظمى ويدا مشكورة اذ حملن المـــاء لرجالنا ليطفئوا ظمأهم ، ولم ينقطعن عن حثهم على القتال والدفاع . وأسرع بوهيمند العاقل فطلب من الاخرين — وأعنى بهم كونت صنجيل والدوق جود فروى وهيج الكبير وأسقف بوى وبقية فرسان المسيح — الاسراع والمبادرة للسير الى القتال قائلا لهم « من شاء أن يساهم اليوم بنصيب فى الصراع فليقدم مصلاتا غير خوار » وسرعان ما كان الدوق جود فروى المعروف باقدامه وشجاعته وهيج العظيم أول القادمين بقواتهما ، ولم يلبث أسقف بوى أن قفاهما بجنده ثم تلاه كونت صنجيل فى جيش كثيف العدد .

استولت الدهشة على رجالنا فراحوا يتساءلون من أين تمكن من

---

(١) تشير الحوليات هنا الى عبارة « الله أكبر » يدل على ذلك ما أورده Raoul de Caen, p. 636. حيث كان المسلمون يهتفون بقوله (Alla Chibar)

الخروج هذا العدد العظيم من الترك والعرب والشرقيين وغيرهم ممن يستحيل احصاؤهم ، ذلك أن هذا الجنس الملعون المحروم من رحمة الرب غطى بحشده الكثيف كافة المرتفعات والجبال والاودية والسهول سواء ما كان منها داخل المدينة أو خارجها ، وجرت بيننا مشاورات ودية قلنا فيها بعد حمد الرب وتبادل الرأى « اعملوا ما وسعكم الجهد واصطنعوا كل وسيلة للاتحاد فى سبيل دين المسيح ونشر الصليب المقدس ، لانكم اذا أرضيتم الرب اليوم انقلبتم أغنياء موفورى الثراء » .

لم يلبث شمل مقاتلينا أن التأم وانتظمت الصفوف ، وكان على الجناح الايسر كل من بوهيمند العاقل ، وروبرت النرمندى وتنكريد الفطن ، وروبرت دى أنزا ، وريتشارد السالرنى ، وتقدم أسقف بوى من مرتفع آخر للاحداق بالترك الكفرة ، وكان على الجناح الايسر كذلك الفارس المشيع الجنان «ريموند وكونت صنجيل» ، وعلى الميمنة الدوق جود فروى والفارس المقدام كونت فلاندر وهيج العظيم وكثيرون ممن أجهل أسماءهم (١) .

وعند اقتراب فرساننا بادر الترك والعرب والشرقيون والغلمان(٢) وجميع الشعوب البربرية الى الهرب السريع من مضايق الجبال ومنافذ السهول، وكان عدد الترك والفرس والرعاع والشرقيين والغلمان وغيرهم من الوثنيين يبلغ ثلاثمائة وستين ألف مقاتل ، هذا عدا العرب الذين

---

(١) Cf. Albert d'Aix, p. 331.

(٢) أوثر كلمة « الغلمان » العربية ترجمة لكلمة Angulani اللاتينية ، لا سيما وأن برييه يقول: الانجولان (Un Corps de troupe de l'armé Turque)، أما المراجع العربية كابن القلانسى فكثيرا ماتذكر لفظ «الغلمان» ويقصد بها فريق من العسكر يستعان بهم فى الحرب ، ولم أجد هذا اللفظ مستعملا قبل هذا التاريخ فيما بين يدى من المراجع العربية .

لا يعرف عددهم غير الله ، وفروا مسرعين الى خيامهم اسراع الظليم ؛ بيد أنهم لم يستطيعوا المكث بها طويلا اذ ما لبثوا أن تابعوا الهرب ونحن فى آثارهم نقتل فيهم طيلة يوم كامل ، وأصبنا غنيمة كبيرة من الذهب والفضة والخيل والحمير والجمال والمواشى والثيران وأشياء كثيرة غير تلك مما نجهلها ، وما كان لاحد من رجالنا ان ينجو هذا اليوم لولا وجود السيد معنا فى هذه المعركة ولولا أنه أرسل الينا على جناح السرعة الجيش الاخر (١) ، فقد استمر القتال من غير انقطاع من الساعة الثالثة الى التاسعة ، الا أن الرب العظيم الحنون الرحيم لم يرض أن يهلك فرسانه أو أن يقعوا فى أيدى أعدائهم ، فبعث الينا هذه النجدة على جناح السرعة ، لكن قتل فى هذا اليوم اثنان من فرساننا الشرفاء هما جود فروى دى مونت سيكيا بوزو ووليم بن المركيز أخو تنكريد ، كما أن غيرهم من الفرسان والمشاة الذين أجهل أسماؤهم لقوا مصرعهم .

فمن هذا الحكم العالم الذى يجرؤ على وصف لباقة الترك ومواهبهم الحربية ومقدار بسالتهم ؟ لقد كانوا يظنون أنهم يخيفون أمة الفرنجة بتهديدهم اياهم بنبالهم كما أخافوا العرب والشرقيين والارمن والسريان والاغريق ، لكن اذا أراد الرب الا يتغلبوا على رجالنا فلن يستطيعوا الى الغلبة سبيلا . ولقد كان حقا ما قيل من أنه لايجوز لاحد ما أن يسمى بالفارس ان كان من غير الفرنجة أو الترك (٢) ، وسأقول الحقيقة ولن يستطيع أحد ما مناقضتى، وهى لو أنهم آمنوا ايمانا تاما بالمسيح واتبعوا

---

(١) يقصد به جيش ريموند كونت صنجيل .

(٢) تشير الوثائق الى الاسطورة التى تزعم ان الفرنجة والترك منحدرون من نبعة تورانية .

النصرانية المقدسة ، ولو تأتى لهم أن يعترفوا برب واحد فى ثلاثة أقانيم وهو ابن الله المولود من العذراء ، الذى تألم ثم قام من بين الاموات وصعد الى السماء أمام أعين تلاميذه ، وأرسل التعزية الكاملة بالروح القدس ، ولو تأتى لهم أيضا أن يؤمنوا ايمانا صادقا عادلا بان له الحكم فى السماء والارض (١) لما وجدنا شخصا ما يمكن أن يساويهم فى القوة والشجاعة وفن القتال .

وشاءت ارادة الرب أن يلاقوا الهزيمة على أيدى رجالنا . وكانت هذه الوقعة يوم أول يوليو .

— ٤ —

زحف الصليبيين على أنطاكية

عبورهم آسيا الصغرى . ذهاب بلدوين وتنكريد الى طرسوس
عبور أرمينيا الصغرى واقليم كبادوشيا
بلوغهم أبواب انطاكية

١ — بعد انهزام الترك — أعداء الرب والمسيحية المقدسة — هزيمة تامة وهروبهم مدة أربعة أيام وأربع ليال سويا جاء الخبر بأن زعيمهم سليمان بن سليمان الاكبر قد فر الى أزنيق ، حيث صادفه عشرة آلاف عربى فقالوا له : « أيها الشقى ، ويا أتعس الخلق جميعا ، ما الذى حملك على الهروب ؟ » فأجابهم سليمان « حين انهزم الفرنجة من قبل كنت أحسب أننى سآخذهم مكبلين مأسورين ، ولما أردت تقييدهم جماعة بعد أخرى ، أبصرت وراءهم شعبا كثيف العدد اكثر من الدبا ، ولو تأتى لكم أنتم أوغيركم أن تكونوا حاضرين لشاهدتم جموعهم تغطى كافة الجبال

(١) اشارة الى قانون الايمان الكاثوليكى .

والتلول والوديان والسهول ، ولم تكد نراهم حتى استبد بنا الفزع الشديد وتابعنا المسير ، وكدنا أن نلقى أنفسنا بين أيديهم من فزع الخوف وهوله ، فان كنتم مصدقى فيما أقول فارحلوا من هاهنا لساعتكم ، إذ لو عرفوا خبر قدومكم لما بقى أحد منكم حيا » فلما سمعوا قوله هذا ولوا الأدبار وتشعب صدعهم وانسابوا فى كل نواحى آسيا الصغرى .

أما نحن فلم نكف عن تعقب أولئك الترك الطغاة الذين كانوا يفرون كل يوم من أمامنا (١) ، وكانوا كلما بلغوا بلدا أو مكانا حصينا كذبوا على سكانه ومكروا بهم قائلين لهم « لقد هزمنا جميع المسيحيين ، وكان نصرنا عليهم عظيما حتى إنه لن يجرؤ أحد ما منهم أبدا على الوقوف أمامنا ، فدعونا ندخل عندكم » ، ولا يكادون يدخلون البلد حتى يسلبوا الكنائس وينهبوا البيوت وكل ما يصادفهم ، كما يغتصبون ما لدى أهله من الجياد والحمير والبغال وجميع ما لديهم من الذهب والفضة ، وكل ما يتأتى لايديهم أن تمتد اليه ثم ينطلقون بأبناء النصارى ، ويأتون على كل ما يستطاع الانتفاع به حرقا أو هدما ، .. كل ذلك وهم يفرون من ملاقاتنا ويفزعون منا ، وقد تتبعناهم عبر الصحارى والاراضى التى خلت من الماء والحياة فحاق بنا الخطر ، وكدنا ألا نخرج أحياء (٢) ، وبلونا مض الجوع وحرقة الظمأ ، ولم نجد ما نمسك به رمقنا سوى الشوك الذى كنا نقتلعه ونسحقه باكفنا ، فكان هو الطعام الذى عشنا عليه ونحن فى أشد حالات الضنك ، وقد نفق منا معظم جيادنا حتى اضطر الكثيرون من فرساننا للترجل ، ودفعنا نقص المطايا الى استعمال

---

(١) كان هذا بعد راحة يومين ، راجع Foucher, p. 336

(٢) يلاحظ هنا أن هذه الوثائق هى التى تنفرد من بين جميع ما كتب فى تلك الناحية بذكر الطريق الذى سلكه الصليبيون ، راجع المقدمة .

الثيران بدلا من جياد القتال . وفى وسط هذه الحاجة الملحة استعملنا الماعز والخراف والكلاب لحمل أمتعتنا .

***

دخلنا بعد ذلك منطقة خصيبة تفيض بالمأكولات والاطايب وتزخر بشتى أنواع الحياة ، واقتربنا من قونية التى أشار علينا أهلها بأن نحمل معنا كميات أخرى وفيرة من المياه لاننا سنفتقد الماء فلا نجده مسيرة يوم كامل ، وبلغنا كذلك نهرا عسكرنا عنده مدة يومين ، وشرع أعداؤنا فى التقدم أمامنا حتى أفضى بهم السير الى ناحية هرقلية حيث كان هناك فريق كبير من الترك متأهبا لملاقاة جند المسيح والبحث عن الطرق المؤدية لايذائهم ، فلم يكد جند الرب القوى يرون هؤلاء الترك حتى استبسلوا فى الهجوم عليهم ، وحملوا فى ذلك اليوم أيضا على عدونا الذى أسرع فولى مدبرا غير مقبل اشبه بسهم قد انطلق من قوسه اثر ضربة قوية صائبة ، وسرعان ما اقتحم رجالنا المدينة ولبثنا بها أربعة أيام (١) .

وهناك انفصل تانكريد بن المركيز عن الاخرين ، وحذا حذوه الكونت أخو الدوق جود فروى ، ودخلا معا وادى Bothrentot ولم يلبث تانكريد ان رحل وحده على رأس فرسانه وانطلق بهم حتى بلغ طرسوس ، فخرج الترك لصده وهبو لدفعه متجمعين فى عصبة واحدة واستعدوا لقتال النصارى ، فلما تدانى رجالنا لحربهم لاذ العدو هاربا ونكص على عقبيه الى المدينة مسرعا ، غير أن تانكريد فارس المسيح ثنى عنانه المضروب وضرب معسكره أمام باب المدينة .

وصل من ناحية أخرى الكونت بلدوين (٢) مع جيشه سائلا تانكريد

---

(١) هى المدة من ١٠ سبتمبر ١٠٩٧ الى ١٣ منه .

(٢) حوادث هذه الفترة واردة بتفصيل أدق فى Raoul de Caen, pp. 629-41; Albert d'Aix, pp. 342-50.

أن يأذن له بمقاسمته المدينة ، فأجابه تنكريد « اننى أرفض كل قسمة معك » فلما أرخى الليل سدوله فر جميع الترك المذعورين ، وحينئذ تستتر سكان المدينة بالظلام الدامس وخرجوا هاتفين بصـــوت عال « بادروا أيها الفرنجة المنتصرون ، بادروا فان الترك الذين اضطربوا خوفا قد انصرفوا جميعا فى آن واحد » .

ولمـا تنفس الصباح قدم أشراف البلد وسلموا المدينة من تلقـاء أنفسـهم وقالوا للمتنازعين حول هذ الموضوع « أقصروا أيها السادة أقصروا اننا نطلب اليكم ونسألكم أن تسودوا علينا هذا الامير [تانكريد] الذى استبسل أمس فى محاربة الترك » . الا أن الكونت بلدوين المحبوب احتج وحاج تانكريد بقوله « فلندخل المدينة معا وننهبها وليقم على حراستها من يصب النصيب الاوفى ، وليحتلها من يستطيع غزوها ! » فعاد تانكريد الشجاع يقول « ما أبغض هذا المسلك الى نفسى وأبعدها عنه ، اننى لا أريد أن أسلب النصارى ، ولقد اختارنى رجال هذهالمدينة أميرا عليهم وهم لا يريدون سواى أميرا » ، ثم لم يشأ تانكريدالشجاع أن يذهب أكثر من هذا فى مناضلة الكونت بلدوين ذى الجيش القـوى وترك المدينة طوعا أو كراهية ، وارتد بشجاعة مع جيشه ، وسرعان ما استسلمت له مدينتان هامتان هما أذنة والمصيصة ، كما دان له كثير من الحصون .

١١ — ومع ذلك فقد تقدم الجيش العظيم وريموند كونت صنجيل وبوهيمند الحذاقى والدوق جودفروى وكثيرون غيرهم ودخلوا بلاد الارمن ظمآنين الى دماء الترك متعطشين لها ، وأفضى بهم السير اخيرا الى حصن شديد المناعة وقفوا حياله عاجزين ، وكان يقيم فيه رجل اسمه « سيمون » من اهل البلد فسألهم أن يكلوا اليه أمر الدفاع عن

تلك البقعة من الارض ضد محاولات أعدائه من الترك ، فمنحه الفرنجة إياها ، وأقام بها مع أبناء جنسه .

ثم غادرنا تلك الناحية ووصلنا — ناعمى البال — الى « قيصرية » من أعمال كبادوشيا ، ثم رحلنا الى مدينة (١) رائعة فخمة وفيرة الغنى كان الترك (٢) قد ظلوا مقيمين على حصارها ثلاثة أسابيع قبل قدومنا، غير أنهم عجزوا عن التغلب عليها ، بيد أننا ما كدنا نبلغها حتى بادرت الى الاستسلام لنا وهى فرحة أشد الفرح ، وقام أحد الفرسان واسمه بطرس الابوسى (٣) Petrus de Alpibus وسأل جميع السادة أن يقطعوه أياها ليدافع عنها بكل ما وسعه الاخلاص من أجل الرب والضريح المقدس وفى سبيل السادة والامبراطور ، فانعقد الرضاء بالاجماع على اقطاعه اياها .

فلما كانت الليلة التالية علم بوهيمند أن الترك الذين كانوا يحاصرون هذه المدينة قد سبقونا فى كل ناحية ، فما لبث بوهيمند أن تأهب هو وفرسانه وحدهم دون سواهم لمطاردتهم انى كانوا ، الا أنه لم تتهيأ له مصادفتهم .

بلغنا بعد ذلك مدينة تسمى جكسو Coxon وكانت زاخرة بمواد المئونة التى كنا فى مسيس الحاجة اليها، وسرعان ما أوطأنا مسيحيوها(٤) فناءهم واستسلموا لنا ، فلبثنا بينهم ثلاثة أيام فى أرغد حال،واستطاع رجالنا أن يستردوا عافيتهم تمام الاسترداد .

---

(١) وتعرف باسم مدينة كومانا Comana

(٢) المقصود بالترك هنا « الدانشمنديون » .

(٣) كان بطرس الابوسى من الفرسان البروفنساليين ، وقد قدم مع روبرتجسكارد الى الشرق ثم دخل فى خدمة بيزنطة ، راجع Hagenmeyer, op. cit., p. 150

(٤) يرجح الاستاذ بريبيه op. cit., p. 63, N. 2 أنهم من الارمن .

ولما علم الكونت ريموند [الصنجيلى] بارتداد الترك القائمين على حراسة انطاكية أطبق تدبيره هو ومشاوروه على المبادرة بارسال بعض فرسانه لاحتلالها بسرعة (١) ، ومن ثم اختار أولئك الذين أراد أن يكل اليهم أمر هذه المهمة وأعنى بهم الفيكونت بطرس القشتالى ووليم دى مونبلييه وبطرس دى روييه ، وبطرس ريموند دوتبول ، وانفذ معهم خمسمائة فارس ، فساروا جميعا فى واد يقع باحدى ضواحى أنطاكية حتى بلغوا حصنا من حصون البوبليكان ، وهنا تناهى اليهم الخبر باحتلال الترك للمدينة وباستعدادهم للاستبسال فى الذود عنها ، فانفصل بطرس دى روييه بمن معه ، حتى اذا كان مساء اليوم التالى — وقد شارف أنطاكية — دخل وادى الروج (٢) ، ووجد به فريقا من الترك والشرقيين فناجزهم القتال ، وفتك بثلة كبيرة منهم ، ثم قص الباقين فى عنف ، وما كاد الارمن النازلون بهذه الناحية يرون فداحة الهزيمة التى أنزلها بطرس بالعدو حتى أذعنوا له ، ودانت له روبحا كما استسلم له كثير من الحصون الاخرى .

أما نحن الذين بقينا فى جكسو فقد غادرناها وتوغلنا فى جبل مفزع يضرب بقنته الى السماء ، هذا الى ضيق مسالكه ضيقا بالغا ، وسرنا فى الطريق المجاور له ، ولم يستطع أحدنا مزاحمة الاخر فى التقدم ، وكانت الجياد تسقط فى الاودية ، وكان كل فرس حمولة يجر فرسا آخر وراءه ،

---

(١) الواقع أن مغادرة السلاجقة لانطاكية لم تكن سوى اشاعة كاذبة ، فقد أكدت الاحداث التالية للصليبيين أنها لا زالت فى أيدى أصحابها وأن النجدات السلجونية كانت لا تزال تترى عليها ؛ وكان هذا العمل من ريموند الصنجيلى تسرعا اذ لم يستشر أحدا من كبار الصليبيين كما أنه لم ينتظر عودة بوهيمند الذى كان قد انفصل قبل ذلك بقليل فى قص أثر الدانشمنديين ، راجع

Runçiman : op. cit., p. vol. I, pp. 191-2.

(٢) وتعرف فى المراجع اللاتينية الغربية باسم Rusa أما واديها فيقع الى الشرق من انطاكية على الطريق الى حلب .

وارتسمت دلائل الحزن على الفرسان أجمعين ، وأخذوا يلطمون أنفسهم بأيديهم غما وكربا ، وراحوا يتساءلون عما يصنعون بأنفسهم وأسلحتهم فمضوا يبيعون فروسهم ومجناتهم وخوذاتهم لقاء مبلغ يتراوح بين ثلاث وخمس دانيات أو بما لا يكاد يساوى شيئا ، أما العاجزون عن بيعها فراحوا يطرحونها عن كواهلهم دون ما ثمن ثم يتابعون سيرهم .

ولما خرجنا من هذا الجبل الملعون وصلنا (١) الى البلدة المسماة « مرعش » فخف سكانها لاستقبالنا فرحين غاية الفرح ، وحملوا الينا ذخيرة وفيرة فأصبحنا فى رغد رغيد ، وأقمنا بها منتظرين وصول السيد بوهيمند .

أخيرا بلغ فرساننا الوادى (٢) الذى تقع به مدينة أنطاكية الملوكية : عاصمة كل بلاد الشام قاطبة التى أعطاها (٣) السيد عيسى المسيح الى بطرس أمير الحواريين ليرجعها الى عبادة الدين المقدس ، وهو الذى ذهب وحكم مع الله فى عالم الروح القدسى .

له المجد دائما الى الابد .

آمين !

---

(١) كان وصولهم اياها يوم ١٢ اكتوبر ١٠٩٧ . راجع فى ذلك تحقيق Brehier, op. cit., p. 65, Note 3

(٢) يقصد بذلك وادى العاصى .

(٣) Cf. Runciman, A Hist. of Crusades, vol. I, p. 213.

— ٥ —

بدء حصار انطاكية

٢٠ اكتوبر الى ديسمبر ١٠٩٥

بدء الحصار . الاستيلاء على حصن حارم . المجاعة فى المعسكر الصليبى

١٢ — حين أخذنا فى الاقتراب من جسر الحديد وجد كشافتنا — الذين جرت عادتهم أن يسبقونا على الدوام — امامهم فئة قوية من الترك يغذون المسير لنجدة انطاكية ، فلم يكن منهم الا أن تقدموا — يدا واحدة وقلبا واحدا — لمهاجمة الاتراك ، وكتبت لهم الغلبة عليهم بعد أن قذفوا الرعب فى قلوب أولئك البرابرة الذين لاذوا بأذيال الفرار وبعد أن لقى الكثيرون منهم مصرعهم فى هذه الواقعة (١) . ولما كان لواء النصر قد عقد على مفرق رجالنا فقد أصابوا — بفضل رعاية الرب اياهم — غنيمة هائلة من الخيول والجمال والبغال والحمير المحملة بالطعام والشراب .

وأخيرا وصل رجالنا الى شاطىء النهر (٢) وعسكروا عنده ، وفى الحال ذهب بوهيمند العاقل مع أربعة آلاف فارس وضرب خيامه أمام أحد أبواب المدينة حتى لا يمكن أحدا من دخولها خفية أو مغادرتها سرا تحت جنح الظلام ، ووصلوا الى أنطاكية فى اليوم التالى وهو ظهر اليوم الرابع من البطالة الذى هو اليوم الثانى عشر قبل أول نوفمبر (٣) ،

---

(١) كانت هذه الوقعة يوم ٢٠ اكتوبر بناء على ما ورد فى
Epistulae et Chartae, Letter No. 1, p. 145.

(٢) يقصد بذلك نهر العاصى .

(٣) يقصد يوم ٢١ اكتوبر ، راجع Epistulae et Chartae, loc. cit.

فحاصرنا ثلاثة أبواب من أبواب المدينة حصاراً فعالا ، ولم نجد مكانا ميسرا لضرب الحصار من الناحية الاخرى ، اذ كان يكتنفنا جبل شامخ الذرى لم يترك لنا غير شعب بالغ الضيق .

اما أعداؤنا الترك الذين كانوا داخل المدينة فقد استولى عليهم الجزع منا استيلاء شديدا أبقاهم خمسة عشر يوما جامدين لا يحركون ساكنا، ولم يجرؤ أحد منهم على مهاجمة فرد ما من جماعتنا ، ولم نكد نضرب معسكراتنا حول أنطاكية حتى وجدنا فى هذه الناحية وفرة بالغة من الاعناب الناضجة ومخابىء مملوءة بالقمح وأشجار مثقلة بالفاكهة ، كما عثرنا على شتى ضروب الاطعمة الصالحة للاكل .

أما الارمن والسريان الذين كانوا داخل المدينة فقد دأبوا على مغادرتها كل يوم متظاهرين بالفرار ، وكانوا موجودين بيننا كل يوم ، بينما بقيت نساؤهم فى المدينة ، وكانت عادتهم أن يتقصوا حالنا وخبر موقفنا ثم يحملون كل شىء الى أولئك المحاصرين الذين أغلقت عليهم منافذ المدينة ومسالكها ، فلما ألم الترك كل الالمام بجميع ما يتعلق بنا ووقفوا على خبرنا شرعوا يغادرون المدينة شرذمة بعد شرذمة ، ومضوا يحدقون بحجاجنا ، ولم يكونوا يتربصون لنا فى ناحية واحدة بل كنا نجدهم يكمنون فى كل الجهات ، فآونة نلقاهم فى طريقنا الى البحر ، وآونة اخرى نصادفهم فى طريقنا الى الجبل .

كان يوجد على كثب من هذه الناحية حصن يدعونه حصن حارم ، قد كمن فيه عدد جم من أبسل الاتراك الذين طالما أقضوا مضاجع رجالنا ، فلما علم سادتنا بذلك اشتد جزعهم وبعثوا كثيرين من فرسانهم ربيئة أمامهم لكشف موقع لاتراك ، حتى اذا تهيأ لفرساننا الذين

يفتشون عنهم كشف مكانهم مضوا لملاقاتهم ، وأخذ رجالنا يتقهقرون تباعا أمامهم حتى بلغوا البقعة التى يعرفون أن بوهيمند يعسكر فيها هو رجنده ، ولقى اثنان من رجالنا مصرعهما فى هذا الارتداد ، فلما ص ك هذا النبأ سمع بوهيمند اندفع هو ورجاله فكان بطل المسيح الاشوس ، وضاعف المتبربرون هجومهم على رجالنا الذين كانوا دونهم عددا ، ومع ذلك فقد احتدم القتال بين الفريقين وهلك الكثيرون من أعداؤنا ووقع غيرهم فى الاسر ، ثم سيقوا حيث ضربت أعناقهم أمام باب المدينة مبالغة فى زيادة آلام من بداخلها ونكالا بهم .

أما الآخرون فقد غادروا المدينة وتسلقوا أحد الابواب وأخذوا يفوقون الينا نبالهم التى راحت تتساقط فى ناقلة معسكر بوهيمند تساقط المطر ، وأصبحت امراة برمية قوس جندلتها .

١٣ — ومن ثم التأم شمل مقدمينا وعقدوا مجلسا للتشاور فيما بينهم فقالوا : لنبن قلعة على قمة جبل مرقب كى نأمن على أنفسنا خطر الترك وتطمئن قلوبنا فلا نعود نخشاهم ، وما كاد يتم بناء القلعة حتى تناوب زعماؤنا الدفاع عنها واحدا تلو الآخر .

لكن حدث ان شح القمح قبل عيد ميلاد المسيح ، وأخذت جميع الاقوات فى النقصان ، وأصبحنا لا نكاد نجرؤ على مغادرة المعسكر ، وعدنا لا نجد فى منطقة المسيحيين شيئا مما يمكن أن نتبلغ به ، زد على ذلك ان لم يجسر احدنا على اقتحام أرض المسلمين ان لم يكن فى النفر العديد والحشد الكثيف ، واذ ذاك عقد سادتنا مجلسا تشاوروا فيه حول اصطناع الوسائل اللازمة لحكم شعب كبير العدد كهذا الشعب ، فانعقد اجماعهم بعد المشاورة على أن ينهض فى الحال فريق من رجالنا

ويقوموا ما وسعهم الجهد بجمع الاقوات ولضمان حماية الجيش من ضربة تأتيه من الخلف ، كما اتفقوا على أن يظل الباقون فى المعسكر لحراسته (١) ، ثم قال بوهيمند « أيها السادة وأيها الفرسان الفطنون: اننى ذاهب مع كونت فلاندر إذا شئتم هذا ورأيتموه خيرا » .

وبعد أن احتفوا احتفاء عظيم الفخامة بعيد الميلاد خرجوا يوم الاثنين — ثانى أيام البطالة — فى أكثر من عشرين ألف فارس وراجل(٢) . ودخلوا سالمين آمنين منطقة المسلمين التى كانت تزخر بكثير من الترك والعرب والشرقيين القادمين من بيت المقدس ومن دمشق وحلب وغيرها من البلدان لشد أزر حامية أنطاكية ، فلما ترامى الى سمعهم نبأ زحف الجيش المسيحى على بلادهم تأهبوا لمحاربة النصارى ، لذلك ما كادت فحمة الليل تتلاشى امام تباشير الفجر حتى كانوا قد بلغوا الناحية التى تجمعت فيها قواتنا، وانقسم أولئك المتبربرون قسمين أحدهما أمامنا، والآخر خلفنا قصد الاحداق بقواتنا من كل النواحى . الا أن كونت فلاندر الهمام — المسلح بايمانه وبشارة الصليب الذى كان يدفعه اخلاصه له للداب على حمله انى كان — كر عليهم فى الوقت الذى هاجمهم فيه بوهيمند ، وهكذا أغار رجالنا جميعا غارة رجل واحد على العدو الذى سرعان ما ولى هاربا وأدبر موليا ايانا ظهره ، تاركا وراءه كثيرين من القتلى ، فاستولى رجالنا على جيادهم وسواها من الغنائم ، أما أولئك الذين استطاعوا النجاة من القتل فقد أغذوا الهرب وحق عليهم

---

(١) كان مما اتفق عليه الصليبيون أن يمضى بوهيمند وريموند كونت فلاندر لزرع النواحى المشرفة على وادى العاصى والاغارة على القرى وسلبها ، كما اتفقوا على أن يكلوا حراسة المعسكر الصليبى امام انطاكية الى ريموند كونت صنجيل وأديمار أسقف دى بوى ويلاحظ ان جود فروى دى بويون كان فى هذه الاونة بالذات مريضا .

(٢) فى الاصل Peditum وقد ترجمتها الترجمة الانجليزية الى كلمة « حجاج »

« الهلاك الابدى » . أما نحن فقد عدنا مسرورين نسبح ونمجد الرب الذى هو فى نفس الوقت ثالوث واحد والذى له الملك الآن والى الابد.

آمـين !

* * *

— ٦ —

حصار أنطاكية

ديسمبر ١٠٩٧ ــ فبراير ١٠٩٨

هجوم الترك على الصليبيين وحماة التموين . فرار بطرس الناسك
ووليم النجار . رحيل تاتيكيوس . انتصار بوهيمند
على الترك قرب بحيرة أنطاكية

١٤ ــ خرج الترك ــ أعداء الرب والمسيحية المقدسة ــ الموجودون داخل أنطاكية لحراستها حين ترامى اليهم الخبر بتغيب السيدبوهيمند وكونت فلاندر عن الحصار ، وقدموا واشتبكوا معنا فى قتال عنيف ، وكانوا يؤثرون مهاجمة النواحى الضعيفة . ولما كانوا يعرفون تمامالمعرفة أن هذين الفارسين الفطنين بعيدان عنا فقد صمموا على مهاجمتنـــا والقضاء علينا يوم الثلاثاء (١) .

سرى أولئك المتبربرون المخيفون بقطع من الليل وانقضوا علينـــا بقسوة وفتكوا بعدد كبير من فرساننا ومشاتنا الذين تراخوا فىحماية

---

(١) كان ذلك يوم ٢٩ ديـسمبر ١٠٩٧ .

أنفسهم ، وفقد أسقف بوى — فى هذا اليوم المشئوم — نائبه الذى كان يقود بنفسه كتيبته ويحمل بيرقه ، ولو لم يكن النهر فاصلا بيننا وبينهم لتعددت هجماتهم علينا ولنكبوا جماعاتنا بنكبات جسيمة .

كان بوهيمند الفطن حينذاك يغادر هو وجيشه منطقة الشرقيين قاصدا جبل تنكريد عساه يجد هناك أى شىء يستحق مشقة الاخــذ والاستيلاء عليه ، وذلك لان الناحية كلها كانت قد نهبت، فوجد البعض قليلا من الاشياء ، وعاد الآخرون صفر الايدى (١) . فأنبهم بوهيمند العاقل بهذه العبارات :

« أيتها الفئة المنكودة الشقية ، ويا أحط المسيحيين قاطبة : ما الذى حملكم على سرعة الخروج ؟ لقد كان عليكم أن تصبروا وتتريثوا حتى يلتئم شملنا والا تكونوا كالقطيع بلا راع ، فلو حدث أن صادفكم أعداؤنا هائمين مشردين لوثبوا عليكم وقتلوكم لانهم يترقبونكم ليلا ونهارا مؤملين أن يروكم بلا قائد يدبر أموركم فيهاجمونكم على انفراد أو مجتمعين ويعملون على سوقكم أسرى » . وما كاد يفرغ من خطابه هذا حتى انكفأ هو ورجاله الى معسكرهم وهم أزهد ما يكونون فى الغنيمة .

وحين رأى الارمن (٢) والسريان أن رجالنا عادوا وهم يكادون أن يكونوا صفر الايدى خالى الوفاض رتبوا أمورهم على التجول فى الجبال وفى الناحية التى تكلمنا عنها يفتشونها تفتيشا دقيقا ، ويشترون الحنطة

---

(١) فيما يتعلق بعودة الصليبيين امام انطاكية من غير تحقيق الهدف الذى خرجوا من أجله ، راجع Albert d'Aix, op. cit., p. 394 وانظر أيضا ابن العديم : منتخبات من تاريخ حلب « مجموعة مؤرخى الحروب الصليبية » ج ٥ ، ص ٥٨٠

(٢) حاول ماتيو الرهاوى أن يتخذ من اقدام الارمن على جمع الاقوات للصليبيين دليلا على ما انطبعوا عليه من الرأفة بهم ، وهو رأى يخالف رأى صاحب الحوليات فى المتن أعلاه .

والاطعمة ويرسلونها الى المعسكر الذى كانت المجاعة القاسية قد ضربت اجرانها عليه ، فكانوا يبيعون حمولة الحمار بثمانى بوبرات، أى مايعادل مئة وعشرين دنية ، فمات الكثيرون من رجالنا الذين عجزوا عن دفع هذا الثمن الفاحش الارتفاع .

١٥ — ادت هذه النكبة الجسيمة والضيق البالغ الى تسلل وليم النجار وبطرس الناسك سرا فمضى تنكريد فى آثارهما وأمسكهما ورجع بهما وهما فى غاية الخزى ، فقطعا على نفسيهما العهد بالطاعة ، وأقسما له الايمان المغلظة بأنهما سوف يرجعان طواعيـــة الى المعسكر وأنهما سيعتذران للسادة .

أقام وليم طول الليل فى فسطاط بوهيمند مقيد الطرف الى الارض وهو أذل من المهانة ، فلما تنفس صباح اليوم التالى مثل أمام بوهيمند وقد احمر خجلا ، فخاطبه بوهيمند بقوله : « أيها الشقى ، يا خزى فرنسا ويا عار جميع الغاليين وأشدهم اثما ، ويا أشقى من حملتــه الارض ، لماذا هربت على هذه الصورة المخزية ؟ أتراك كنت تريد خيانة هؤلاء الفرسان وتسليم جيش المسيح للكفرة كما صنعت بغيرهم من قبل فى اسبانيا ؟ » ، فلزم وليم الصمت المطبق ولم تنفرج شفتاه قطعن أية كلمة ، فاجتمع الفرنسيون جلهم تقريبا متوسلين الى السيد بوهيمند الا يشتد أكثر من هذا فى ايلامه ، فأجاب سؤلهم وقال « ان حبى اياكم يحملنى على تلبية طلبكم عن طيب خاطر اذا أقسم لى قسما خالصا من قلبه وروحه ألا يحيد عن طريق بيت المقدس سواء فى الفرج أوالضيق . وكذلك اذا قبل تنكريد ورجاله العفو عنه » . فلما سمع تنكريد هذه العبارة رضى ، وسرعان ما رده بوهيمند ، على أنه حدث فيما بعد أن افترس الخزى وليم النجار ، فما لبث أن هرب واختفى .

أشتد الفقر والبؤس اللذان ادخرهما الرب لنا جزاء خطايانا (١) . اذ لم يعد فى الجيش كله من الفرسان أصحاب الجياد السليمة سوى الف فارس .

١٦ ــ الا أن الخبر ترامى الى عدونا « تاتيكيوس » بأن جيوشا من الاتراك زاحفة علينا فاستبد به الفزع الشديد ، وصور له خياله ان قد فتك بنا أعداؤنا أو أننا سقطنا جميعا أسرى فى أيديهم فراح ينتحل شتى الافتراءات الكاذبة فقال : « أيها الرجال الحكماء ، انظروا مانحن فيه من بالغ الضيق ، لقد عدمنا النجدة وضاقت بنا السبل ، فدعونى اذن أعود الى بيزنطة ، وكونوا على ثقة من أننى سأحضر اليكم ها هنا ببحر لجى من السفن المحملة بالحنطة والنبيذ والشعير واللحم والطحين والجبن وكل ما تحتاجونه ، وسأبعث اليكم بالجياد للبيع ، وستصلكم الذخيرة الى هنا عبر الارض الموالية للامبراطور ، وأقسم لكم على صدق هذا كله ، وأن أهل بيتى وفسطاطى لباقون فى المعسكر هم الآخرون ، وكونوا واثقين من رجوعى اليكم على جناح السرعة » .

ولما ختم هذا العدو كلامه مضى مخلفا بالمعسكر كل ما يملكه (٢) . وهو حانث فى يمينه وسيظل حانثا فيه ، وكنا اذ ذاك فى أشد حالات الضنك ، اذ ضيق الترك علينا الخناق من جميع الجهات ضيقا لم تجرؤ حياله على مغادرة خيمنا فكابدنا مجاعة هددتنا بالفناء ، وعدمنا كل مساعدة وكل نجدة ، وهرب صغار القوم والفقراء الى قبرص والى سلطنة الروم ، كما فر بعضهم الى الجبال ، وكان خوفنا من الترك

---

(١) يتفق صاحب الحوليات هنا مع
Foulcher de Chartres, (R.H. Oc. Cr.) pp. 229-8.
فى ارجاع المجاعة التى حاقت بالصليبيين الى كثرة ما ارتكبوه من الخطايا .

(٢) عالجنا موضوع نكوص تاتيكيوس والاراء المتناقضة بشأنه فى كتابنا الحرب الصليبية الاولى « الطبعة الثانية ، ١٩٥٨ » ، الفصل الثانى .

المفسدين قد جردنا من الجرؤة على الذهاب الى البحر ، وبذلك سدت أمامنا جميع مسالك النجاة .

١٧ ــ حين علم الدوق بوهيمند أن حشدا كثيفا من الترك لايحصيه العد زاحف علينا اقتضاه ما انطبع عليه من الحكمة التفتيش عن الآخرين وقال لهم : « أيها السادة ويا أيها الفرسان العقلاء ، ترى ما نحن فاعلون؟ اننا لسنا بالكثرة التى تمكننا من المحاربة فى جبهتين ، لكن هل تعرفون ما نحن فاعلون ؟ سننقسم الى فريقين وسيبقى المشاة لحراسة الخيام وسيتمكنون تمكنا تاما من الدفاع عن أنفسهم ضد حامية المدينة ، أما الفرسان فيلازموننا ليواجهوا أعداءنا الذين نصبوا معسكرهم على كثب منا عند حصن حارم وجسر الحديد » .

ولما أقبل المساء خرج بوهيمند العاقل من معسكره مع الفرسان الآخرين الفطناء وأمضى الليل فيما بين النهر والبحيرة ، وما كادت تبدو أولى خيوط الفجر حتى بعث النفائض ربيئة له لتستطلع عدد الكتائب التركية ومواضعها وحركاتها ، فانطلقوا لطيهم يفتشون كدأبهم عن أماكن تجمعات القوات التركية ، وأخيرا رأوا أتراكا كثيرين قادمين من ناحية النهر مقسمين الى كتيبتين ، وكانت قوتهم الرئيسية فى الخلف فعادت الطلائع على جناح السرعة قائلة « انظروا ، انهم هناك ، لقد جاءوا ، فاستعدوا جميعا لانهم على وشك الاقتراب منا » .

وقال بوهيمند العاقل للاخرين : « أيها السادة أيها الفرسان الذين لا يقهرون ، أعدوا صفوفكم للقتال » ، فأجابوه : انك عاقل وانك فطن وانك عظيم وفخم أنت أيها المحارب الباسل ياليث المعارك ويارب الوقائع ويا مقرر مصائر الحروب ، افعل ما بدا لك فقد وكلنا الامور اليك لتنجز كل ما تراه صالحا لنا ولك » .

حينذاك أمر بوهيمند ان يرتب كل زعيم من الزعماء فريقه تنظيما تاما ، فنفذوا ما أمرهم به ، فكونوا ست فرق إنضمت خمس منها بعضها الى بعض لمهاجمة العدو ، وأخذ بوهيمند يتراجع بفريقه على مهل الى الوراء ، واستبشر رجالنا اذ اشتبكوا مع العدو والتحمت كل فئة بفئة ، وتعالت الصيحات الى السماء وتقاتلوا جميعا ، وحجب الجو وابل من النبال الهطالة .

ولما أقبل الفريق الاكبر من جيشهم الذى كان مقيما فى الخلف هجموا هجوما عنيفا على رجالنا الذين أخذوا يتقهقرون شيئا فشيئا ، فتألم بوهيمند الحكيم لهذا المنظر ، ودعى اليه حامل علمه روبرت ابن جيرارد وقال له : « اذهب بأسرع ما يمكنك وأنت أبسل رجل ، وتشجع فى سبيل نجدة دين الرب والضريح المقدس ، واعلم أن هذه الحرب ليست حربا مادية بل هى روحية وكن أشجع صناديد المسيح ، رافقتك السلامة ، وليرعك السيد أينما كنت » . ولما أحاط نفسه من جميع الجهات بعلامة الصليب اندفع كالاسد الذى حبس عن الاكل ثلاثة أيام أو أربعة وخرج من غيله مبربرا ظامئا لدماء القطعان ، وكر لساعته وسط ميدان الوغى معملا القتل فى هذه النعاج التى راحت تفر هنا وهناك ، ثم صار فى وسط صفوف الترك واشتد فى مطاردتهم حتى ان أضواء علمه كانت تبرق فوق رءوسهم .

أما المقاتلون الآخرون فسرعان ما أمسكوا عن التقهقر حين رأوا علم بوهيمند يخفق عاليا أمام أعلام الآخرين ، وكر جميع رجالنا كرة رجل واحد على الترك الذين استولى عليهم الذهول فلاذوا بأذيال الفرار فأخذ رجالنا فى تعقبهم وراحوا يعملون القتل فيهم حتى بلغوا جسر العاصى ، الا أن الترك سرعان ما عادوا الى معسكرهم واستولوا على كل ما تمكنت أيديهم منه ، حتى اذا تم لهم سلب جميع ما به أضرموا فيه النيران وايثالوا هاربين ، ولما علم الارمن والسريان بهزيمة الترك فى هذه الرقعة خرجوا من قراهم ، وتربصوا لهم فى الكمائن التى نصبوها لهم فى الممرات فقتلوا وأسروا الكثيرين منهم .

وهكذا شاءت ارادة الرب أن تدور الدائرة على أعدائنا فى ذلك اليوم ، ونجح رجالنا فى استرداد الجياد وغيرها من الاشياء العدة التى أفادتهم فائدة جليلة ، وحملوا مائة رأس من القتلى الى باب المدينة حيث نصبت خيام رسل حاكم مصر الوافدين على ساداتنا .

أما المحاربون الذين بقوا فى المعسكر فقد شغلوا طول يومهم بقتال حامية أنطاكية أمام ثلاثة أبواب من أبواب المدينة ، وقد جرت هـــذه الوقعة يوم الثلاثاء (١) السابق لبدء الصوم الكبير ، كل ذلك برعاية سيدنا يسوع المسيح الذى ذهب وحكم مع الآب والروح القدس ، الرب ، له الحكم الى الابد .

آمــين !

* * *

(١) وذلك يوم ٩ فبراير ١٠٩٨ .

— ٧ —

حصار أنطاكية

الحملة على السويداء . تشييد حصن المحمرة

١٨ — عاد رجالنا بفضل رعاية الله غالبين مستبشرين بنصرهم الذى آتاهم اياه فى ذلك اليوم . أما أعداؤنا المغلبون على أمرهم فقد هزموا هزيمة ساحقة ودابوا على الهروب وهاموا على وجوههم شاردين هنا وهنـاك فمضى بعضهم الى خراسان وانطلق البعض الآخر الى أرض المسلمين ، ولما رأى زعماؤنا أن حامية البلد آخـذة فى التحرش بنا والاقتراب منا فقد سهروا ليلهم ونهارهم باحثين عن الناحية التى قد يمكن لتلك الحامية مباغتتنا منها ، لذلك عقدوا مجلسا للتشاور فى الامر وقالوا : « يجب علينا قبل أن نقدم على حرب تودى بجماعتنا أن نبنى حصنا على المحمرة الواقعة أمام باب المدينة حيث يوجد الجسر ، ومن هنا ربما استطعنا بدورنا تضييق الخناق على عدونا » .

فوافق الجميع على هـذا الرأى واستصوبوا المشروع استصوابا عظيما ، وكان كونت صنجيل أول من تكلم فقال : « امدونى بالمساعدة اللازمة لاعادة بناء هذا الحصن ، وسأحصنه وأحميه ، فأجابه بوهيمند : « واننى سأمضى معك — اذ قبلت وقبل الآخرون — الى باب سمعان لجمع الرجال القادرين على انجاز هذا العمل (١) . أما من يبقون هنا فسوف يعملون على تحصين جميع الجهات للدفاع عن أنفسهم » . وكان أن تم ما اتفقوا عليه .

---

(١) وقوامهم جماعة الجنوية اللذين قدموا بأسطولهم يوم ١٧ نوفمبر ١٠٩٧ ، راجع فى ذلك :

.Brehier, Hist., Anonyme, p. 89, Note 5.

عند ذلك رحل الكونت بوهيمند الى باب سمعان ، أما نحن الذين انضم بعضنا الى بعض وصرنا فئة واحدة فقد شرعنا فى بناء الحصن ، واذا بالترك الذين أعدوا أنفسهم للخروج قد قدموا علينا لمحاربتنا ، وكروا علينا كرة أدت الى هرب رجالنا وهلاك الكثيرين منهم مما سبب لنا جزعا كبيرا .

ولما رأى الترك فى اليوم التالى (١) تغيب زعمائنا وعلموا أنهم خرجوا بالامس قاصدين الميناء ، جمعوا شملهم ومضوا لصد من كانوا قادمين من ناحية الميناء ، فلما أبصروا الكونت بوهيمند على رأس هذه القوة صروا على أسنانهم واندفعوا مزمجرين زمجرة هائلة ، ثم أحدقوا برجالنا ينضحونهم بالنبال والسهام ، فجرحوهم وقتلوهم فى قسوة ، وهجموا على رجالنا هجوما عنيفا اضطرهم للفرار الى الجبل الشاهق والى كل ناحية حسبوها تعصمهم منهم ، ولم تفيض الحياة الا لمن تهيأ لهالاختفاء بالهرب السريع ، أما من عجز عن الفرار فقد لاقى حتفه ، واستشهد فى هذا اليوم أكثر من الف من فرساننا ومشاتنا ، وفى ايماننا أنهم صعدوا الى السماء حيث لبسوا ثياب الاستشهاد البيضاء .

لم يسلك بوهيمند نفس الطريق الذى سلكه الاخرون ، بل سرعان ما انقلب راجعا مع فريق من الفرسان الى حيث كنا مجتمعين ، ولما كان الغضب قد اشتد بنا لمصرع رجالنا فقد ضممنا صفوفنا اليهم وهتفنا باسم المسيح وكلنا ثقة تامة فى بلوغ الضريح المقدس ، واتفقنا على منازلة العدو ، وأن نكون جميعا يدا واحـدة فى الهجوم عليه ، وأبدى أعداء الرب ورجالنا ما أذهل وأرعب ، فكان الترك يعتقدون اننا سنغلب على أمرنا وأنهم سوف يقضون علينا كما قضـوا على قوات الكونت

---

(١) وذلك يوم ٦ مارس ١٠٩٨ .

بوهيمند ، لكن الرب القوى لم يمكنهم من ذلك ، فقد هاجم جمعهم فرسان الاله الحق — المسلحون بعلامة الصليب — هجوما عنيفا دفعهم الى الفرار عن طريق الجسر الضيق وأمعنوا فى الهرب حتى بلغوا مدخل المدينة ، أما الذين لم يسعفهم الهرب بعبور الجسر والنجاة بحياتهم لتزاحم الرجال والجياد بالمناكب فقد لاقوا فى هذه البقعة الموت الابدى، وذهبوا الى النار الابدية المعدة لابليس وملائكته (١) .

ولما تم لنا الظهور على الترك أخذنا فى تضييق الخناق عليها ودفعناهم شطر النهر وألقيناهم فيه ، فاصطبغت أمواجه السريعة بدمائهم، وكان أحدهم اذا حاول تسلق أعمدة الجسر اورام السباحة لبلوغ اليابسة تناوشته سهام رجالنا الذين كانوا يغطون شاطىء النهر ، وجلجل الافق بضجيج صيحاتهم وصراخ رجالنا حتى بلغ الضجيج عنان السماء وانهل وابل من السهام والنبال حجب ضوء النهار من أن يلمحه الطرف وبرزت نساء المدينة المسيحيات على شرفات الاسوار يرقبن سوء منقلب الترك وهن فرحات سرا .

أما الارمن والسريان فقد استجابوا — طوعا أو كرها — لاوامر الترك وأخذوا ينضحوننا بالنبال ، وهلك فى هذه الوقعة اثنا عشر أميرا من أمراء الترك ، كما قتل كثيرون غيرهم من أفطن المحاربين وأشجع المقاتلين الذين كانوا يعدون من خيرة المدافعين عن المدينة حتى لقد بلغ عددهم ألفا وخمسمائة رجل . أما من قيضت لهم الحياة فلم يعودوا يجرءون على التهليل أو الزعيق سواء بالليل أو بالنهار كما جرت عادتهم ولم يحل بيننا وبينهم سوى مقدم الليل ، فهو الذى منع الفريقين من المحاربة واستعمال الحراب والسيوف والسهام ، وبذلك ، تمكنا بقوة

---

(١) متى ٢٥ : ٤١ .

الرب والضريح المقدس من قهر أعدائنا الذين فقدوا ما كان لهم من قبل من مقدرة على الهتاف والعمل .

وأصبنا في هذا اليوم كمية كبيرة من الحاجات الضرورية لا سيما من الجياد .

وفي اليوم التالي (١) غادرت المدينة ــ عند مستهل النهار ــ فئة اخرى من الترك وجمعت ما صادفته على شاطىء النهر من جيف قتلاها ثم أخذتها وقبرتها في « المحمرة » الواقعة خلف الجسر أمام باب المدينة، ودفنوا مع هذه الجثث جببا وبزنتيات (٢) وقطعا من الذهب وقسيا وسهاما وغير ذلك من الاشياء التي لا نعرف لها أسماء . ولما علم رجالنا أن الترك قد لحدوا موتاهم جمعوا عدتهم وهبوا مهطعين مسرعين الى تلك المقبرة الشيطانية وأمروا بتحطيم الاضرحة ونبشها وطرح الجثث بعيدا ورموا بها جميعا في خندق حفروه لها (٣) ، كما حملوا الرءوس المقطوعة الى المعسكر ليعرف القوم عدد القتلى ، هذا عدا الرءوس التي وضعوها على أربعة جياد من جياد رسل أمير مصر (٤) وأرسلوها ناحية البحر ؛ فلما رأى الترك هذا المنظر ران على قلوبهم الحزن المقيم ، وكانوا يبكون كل يوم قتلاهم ، ولم يعد لهم سوى النحيب والعويل .

وفي اليوم الثالث (٥) انضم بعضنا الى بعض ــ ونحن في شدة

---

(١) هو يوم ٧ مارس ١٠٩٨ .

(٢) نوع من العملة المستعملة اذ ذاك .

(٣) Albert d'Aix, op. cit., pp. 384-6; Raymond d'Aguilers p. 249

(٤) Raymond d'Aguilers, p. 247. حيث أورد خبر هذه السفارة الفاطمية بالتفصيل .

(٥) اعنى يوم ٨ مارس ١٠٩٧ .

الفرح — لبناء الحصن المشار اليه آنفا بالاحجار التى انتزعوها من مقابر الترك ، ولم يكد يتم بناؤه حتى شرعنا فى التضييق من كل ناحية على أعدائنا الذين تلاشى زهوهم ، أما نحن فقد ذهبنا فى غاية الطمأنينة أنى أردنا : الى الميناء أو الجبل ، نسبح ونحمد ربنا الذى له المجد والشرف الى الابد .

آمين .

* * *

— ٨ —

نهاية حصار أنطاكية والاستيلاء عليها
(من ٨ مارس الى ٣ يونيو ١٠٩٨)

تانكريد يحتل حصنا بجرى المدينة ويسد جميع المسالك على المحاصرين، المفاوضات بين بوهيمند وفيروز الاستيلاء على انطاكية

١٩— أغلقنا جميع المخارج تقريبا أمام الترك وسددناها عليهم الا ناحية النهر التى كان بها حصن واحد ودير منفرد ، ولو كان هذا الحصن تحت حراستنا القوية لما جرؤ أحدهم على مغادرة أى باب من أبواب المدينة ولسدت جميعها فى وجوههم ، لذلك اجتمع رجالنا للتشاور فيما بينهم ، وانعقد رأيهم على قولهم . « لنختر واحدا منا للاستيلاء بالقوة على هذا الحصن ، وليحول بين أعدائنا وبين بلوغ السهل والدنو من الجبل ، وكذلك لسد كل مداخل المدينة ومخارجها ، فكان تنكريد أول من قدم نفسه وقال « اذا كنت أعرف الفائدة التى سوف أجنيها من هذا

للحصن فانني سأحتله مع جميع رجالي وحدهم ، وسأمنع العدو منعا بيانا عن الطريق الذى كثيرا ما جرت عادتهم على مداهمتنا منه » .

فأمدوه فى الحال بأربعمائة قطعة من الفضة .

وبادر تنكريد فرحل(١) مع فرسانه وجنوده الابطال ، وسرعان ما أخذ جميع السبل على الاتراك أخذا قويا حتى انهم — وقد أذهلهم الجزع — لم يجرءوا على فتح أحد أبواب المدينة لجمع الكلأ والخشب أو أى ضرب من الضروريات اللازمة لهم ، وبقى تنكريد هنالك مع رجاله ، وبدأ فى محاصرة المدينة من جميع النواحى .

وفى اليوم ذاته أقبل الى المدينة من الجبال فريق كبير من الارمن والسريان وهم فى غاية الاطمئنان ، حاملين الذخيرة للتبرك والاقوات لتموين المدينة ، فهب تنكريد لصدهم وأسرهم واستولى على جميع ما معهم من المئونة من القمح والنبيذ والشعير والزيت وأمثالها ، وكان تنكريد قد أظهر غاية القوة وجاء بالعجائب ، ذلك أنه قبل سقوط انطاكية سد جميع المخارج أمام الترك واحتلها .

وانه لمن المستحيل على أن أقص جميع ما فعلناه قبل استيلائنا على المدينة ، كما أنه لا يمكن لاحد ما ممن كانوا فى تلك النواحى : دينيا كان أم علمانيا أن يكتب أو يروى بالتمام كيف سارت الامور .

ومع ذلك فسأروى الشيء القليل منها .

---

(١) كان ذلك الرحيل يوم ٥ أبريل ١٠٩٨ .

٢٠ — كان هناك قائد تركى الجنس اسمه فيروز » (١) قد توثقت عرى الصداقة المكينة بينه وبين بوهيمند الذى طالما راح يلوح له فى الرسائل المتبادلة بينهما بمودته ويمنيه بها ، ووعده بالترحيب به ان هو اعتنق النصرانية ، وراح يغريه بالشرف العظيم والثروة الوافرة ، فوثق فيروز بتلك الاقوال وهاتيك العهود وقال « اننى أقوم بحراسة ثلاثة أبراج ، واننى أعده بها عن طيب خاطـــر وسأسلمه اياها يوم يشاء ، وسأرحب به فيها » .

فلما وثق بوهيمند من دخوله المدينة انشرح صدره واطمأنت نفسه ، ثم جاء الى السادة الاخرين ثابت الجنان وقال لهم مستبشرا « أيهـا الفرسان الفطنون ، عليكم أن تتبصروا المتربة والشقاء اللذين تحيا فيهما صغارا وكبارا ولا ندرى من أين تأتينا النجدة ، ومن ثم فلعله يرضيكم وبشرفكم ان يقوم أحدنا فيرشح نفسه ويتقدمنا جميعـا ، فان مكنته احدى الوسائل أو براعته من الاستيلاء على المدينة أو شن الهجوم عليها بمفرده أو بمعونة الآخرين أجمعنا الرأى على أن نملكه اياها » ، غير أن هؤلاء السادة لم يقبلوا عرضه وخالفوه بقولهم له : « لن تقبل أن ينفرد واحد منا وحده دون الآخرين بامتلاك هذه المدينة ، بل سوف نتقاسمها جميعا فيما بيننا بالتساوى ، ولما كنا جميعا قد ساهمنا فى هذا العمل فلا بد أن نتقاسم شرف الاستيلاء عليها .

---

(١) ذكر ابن الاثير : الكامل ، ج ٨ ص ١٨٦ ، (طبعة الاستقامة بالقاهرة) ان اسمه « روزبة » وأشار الى أنه كان زرادا ، ثم أصبح أحد المستحفظين للابراج حيث كان يتولى حفظ برج يلى الوادى وانه مبنى على شباك فيه ، وسماه ابن العديم : منتخبات من تاريخ حلب ، ج ٥ ص ٥٨٢ « بفيروز » ، وهو الاسم الذى آثرناه لقربة من الرسم الهجائى الوارد فى الاصل اللاتينى لهذه المذكرات حيث قال ان اسمه Pirrus ولم يذكر ابن الاثير ولا ابن العديم جنسه ، على حين ان المراجع الصليبية المعاصرة اهتمت بهذه الناحية وان اختلفت فيما بينها ، فصاحب الجستا — كما فى المتن اعلاه يذكر انه تركى ، وجاراه فى ذلك Raymond d'Aguilers, p. 251. ونسبه بعضهم الى الارمن كما جاء فى Raoul de Caen, p. 562 .

فلما سمع بوهيمند هذه الكلمات افترت شفتاه عن بسمة خفيفة فيما بينه وبين نفسه وانصرف عنهم لساعته .

ولم نلبث غير قليل حتى تلقينا أنباء اقتراب جيش أعدائنا الترك والرعاع وغير الارثوذكس وغيرهم من الشعوب ، وسرعان ما اجتمع زعماؤنا وعقدوا مجلسا للتشاور فيما بينهم قائلين : « اذ قدر لبوهيمند التغلب على المدينة وحده أو بمعونة الآخرين فعلينا ان نوليه اياها عن طيب خاطر ، مشترطين عليه الوفاء بعهدنا مع الامبراطور في المبادرة برد المدينة اليه اذا هو (١) قدم لنجدتنا وراعى الاتفاق الذى أبرمه معنا وأقسم لنا على احترامه ، فان لم يفعل ذلك تركناها في حوزة بوهيمند » .

وحينئذ شرع بوهيمند في ملاحقة صديقه (٢) بطلباته اليومية ، مغريا اياه بكل ضروب الرعاية والكسب الجزيل قائلا له « لقد دنت اللحظة الملائمة التى تستطيع فيها اتمام ما اعتزمنا عليه من صلاح أمورنا . بأن تقوم يا صديقى فيروز بالمساعدة التى وعدتنى بها » .

وسر فيروز وصرح بأنه سيعاونه بالطريقة التى يراها ملائمة .

فلما كانت الليلة التالية (٣) بعث فيروز ابنه الى بوهيمند سرا ليكون رهينة عنده تأكيدا له على أنه سوف يدخله البلد ، وانفذ معه هذه الرسالة :

« عليك أن تستدعى غدا جميع جيش الفرنجية متظاهرا بالذهاب لتخريب المنطقة التى يسكنها المسلمون ، ثم تنكفىء على عجل عبر الجبل

---

(١) أى الامبراطور ألكسيس كومنين .

(٢) يعنى بذلك « فيروز » .

(٣) ليلة ٢ — ٣ يونيو .

القائم على اليمين ، أما أنا فسأعنى بمراقبة هذه القوات وسأنتظرها وأتلقاها فى الابراج (١) التى فى حوزتى وتحت اشرافى » .

وفى الحال استقدم بوهيمند أحد مشاته واسمه مال كرون Male Coronue وألقى اليه بتعليماته ، وطلب اليه أن يدعو جيش الفرنجة العظيم للتأهب لدخول أرض المسلمين ، وكان أن تم له ما أراد وعهد بوهيمند بتنفيذ هذه الخطة الى الدوق جود فروى ، وكونت فلاندر وكذلك كونت صنجيل وأسقف بوى قائلا لهم « ستستسلم لنا انطاكية الليلة اذا لاحظتنا عناية الرب » .

ولقد تم كل شيء على الصورة التالية : فقد تجمع الفرسان فى السهل ، وأقام على الجبل جماعة المشاة ودأبوا على السير طوال الليل بعضهم فى اثر بعض حتى تنفس الفجر ، ثم اقتربوا من الابراج التى ظل حارسها يقظان بها ، وسرعان ما ترجل بوهيمند وأصدر تعليماته الى جميع من معه قائلا لهم : « امضوا قدما مطمئنين متحدين ، واصعدوا بالسلم الى انطاكية التى ستقع فى يدنا سريعا ان شاء الله » .

فظلوا سائرين حتى بلغوا السلم المثبت الى أسوار المدينة تثبيتاقويا فارتقاه زهاء ستين رجلا من رجالنا ، وانبثوا بين الابراج التى يشرف عليها فيروز الذى دب الخوف اليه ، وخشى على نفسه وعلى رجالنا من الوقوع بين يدى الترك ، وذلك حين أبصر الصاعدين على السلم لايعدون أن يكونوا شرذمة ضئيلين ، فصاح بهم « ما أقل الفرنجة (٢) » أين اذن بوهيمند الشجاع ؟ أين هذا الذى لا يقهر ؟ » .

---

(١) الواقع ان فيروز كان يقوم بحراسة ثلاثة ابراج وليس على برج واحد كما ذكر ابن الاثير : الكامل ، ج ٨ ص ١٨٦ .

(٢) قال فيروز هذه الجملة باليونانية Micro Francos echome وهكذا نقلها صاحب الحوليات .

وفى هذه اللحظة بالذات نزل جندى لمبــاردى (١) وتدافع الى بوهيمند قائلا له « ترى ما معنى وقوفك هنا أيها الرجل الفطن ؟ وما الذى جئت من أجله؟ أما ترانا قد استولينا على ثلاثة ابراج ؟ » .

فأثارت بوهيمند هذه الكلمات فانضم الى الاخرين ووصل الجميع مستبشرين الى السلم .

ما كاد الذين بالابراج يلمحون هذا المنظر حتى تعالى هتافهم وهمفى نشوة وسرور قائلين : « هكذا أراد الرب » .

وصحنا نحن (٢) نفس الصيحة .

وعندئذ بدأ التسلق العجيب حتى بلغوا القمة وانطلقوا سراعا الى الابراج الاخرى وهم يقتلون كل من يعثرون عليه ، فكان من بين القتلى أيضا أخو فيروز .

غير أن السلم الذى صعدنا عليه تحطم مما أحزننا وأوقعنا فى كرب شديد ، وعلى الرغم من انكساره الا انه كان يوجد الى يسارنا بابمغلق لا يدرى أحد عنه شيئا ، وكان الظلام لا يزال مخيما ، وأخذنا نتحسس الطريق الى هذا الباب ، وأفضى بنا البحث عنــه الى العثور عليه ؛ فتسابقنا جميعا نحوه وحطمناه ونفذنا منه الى المدينة .

وفى هذه اللحظة بالذات دوت صيحة مجلجلة فى كافة أرجاء المدينة فلم يضع بوهيمند أيةدقيقة بل أمر برفع رايته المجيدة على رابيةمواجهة

---

(١) يستعمل كاتب المذكرات كلمة « لمباردى » هنا فى معرض الكلام عن نرمان ايطاليا، راجع المقدمة .

(٢) التفرقة بين من فى داخل الابراج من الفرنجة وبين الذين ظلوا مع بوهيمند تدل على أن المؤلف كان من الفريق الثانى .

للقلعة وعندما تنفس الصباح ترامى الخبر الخطير الذى أرجفت به المدينة الى من كانوا لا يزالون مقيمين فى معسكراتهم فخرجوا مسرعين ، ورأوا راية بوهيمند تخفق على أحد المرتفعات ، وسرعان ما كروا مسرعين ودخلوا المدينة من أبوابها ، وذبحوا من صادفوه بها من الاتراك والمسلمين ، ولم ينج من القتل سوى من تهيأ لهم الفرار الى القلعة ، وخرج جماعة آخرون من الترك من الابواب ورأوا سلامتهم فى الهروب .

أما رئيسهم ياغى سيان فقد هرب هـــو الآخر مع كثيرين ممن تبعوه (١) ، وأدى بهم الهرب الى دخول منطقة تنكريد ولم تكن بعيدة عن المدينة ، ونظرا لتعب جيادهم فقد انكفأوا الى احـــدى الدساكر واعتصموا ببيت من بيوتها ، ولم يلبث سكانها الارمن والسريان ان عرفوا خبرهم ، وسرعان ماقبضوا (٢) على ياغى سيان وقطعوا رأسه وحملوها الى بوهيمند لينالوا حريتهم ، كما بيع نجاده وقراب سيفه بســتين بيزنتة .

وقد جرت هذه الاحداث فى اليوم الثالث من يونيو أى خامس أيام البطالة ، وامتلأت جميع شعاب المدينة ومسالكها بالجثث ، حتى لقد اصبح من المستحيل السير فيها نظرا للرائحة المتصاعدة منها ، ولم يتمكن احد منا من السير فى الشوارع الا على جثث الموتى .

* * *

(١) الوارد فى ابن الاثير : الكامل ، ج ٨ ص ١٨٦ أنه خرج هاربا فى ثلاثين غلاما .

(٢) ذكر ابن الاثير « شرحه » أن ياغى سيان سقط عن فرسه مغشيا عليه ولم تكن به مسكة وقد قارب الموت فتركه من معه فاجتاز به أرمنى حطاب فقتله .

— ٩ —

حصار الترك لانطاكية

من ٥ يونيو الى ٢٨ يونيو ١٠٩٨

وصول أم كربوغا أنطاكية . رسالة الخليفة عن الجيش المسيحي . موقف أم كربوغا وميلها للنصارى . هجوم كربوغا على أنطاكية . قصة الحلم . يمين الزعماء الصليبيين . رؤيا بطرس. حريق انطاكية والمجاعة فيها . هروب كـونت شارتر الى الامبراطور . الحربة المقدسة . سفارة بطرس الناسك وهرلوان الى المعسكر الاسلامي . انتصار الصليبيين

١١ — كان كربوغا — زعيم جند ملك (١) فارس — لا يزال في خراسان حين تلقى من ياغي سيان — حاكم انطاكية — عدة رسائل يلح عليه فيها أن يبادر الى القدوم لانقاذه ، لان محاصرة الفرنجة الاقوياء اياه بانطاكية أنزلت به شر البوائق . ولو أن كربوغا أنفذ اليه فريقا لنجدته لاسلمه ياغي سيان مدينة أنطاكية ، أو لما كان أقل من أن يمنحه منحة عظيمة . وكان كربوغا قد استعد للامر منذ زمن بعيـد ، لذلك لم يكد يأذن له الخليفة — زعيمه الروحي — بقتال النصارى حتى جمع جيشا كبيرا من الترك ما لبث ن زحف به في الطريق الطويل المؤدي الى أنطاكية .

وجاء حاكم بيت المقدس بيته لمساعدته ، كما قدم أمير دمشق هو الآخر بجند كثيف ، وجمع كربوغا جموعا غفيرة جدا من الوثنيين والترك والعرب والشرقيين والرعاع وغير الارثوذكس والكرد والفرس والغلمان

(١) المقصود بملك فارس هنا السلطان بركياروق أكبر أبناء السلطان ملكشاه الذي أخرجه الثوار بعد موت أبيه من حبسه في اصبهان ، راجع الكامل لابن الاثير ، ج ٨ ص ١٦٤ — ١٦٥ .

وغيرهم من الاجناس الاخرى التى لا حصر لها ، أما الغلمان فكانوا ثلاثمائة ألف رجل وكانوا فى منعة من الرماح والقسى وسواها من الاسلحة للبسهم الحديد هم وجيادهم ، هذا الى ما طبعوا عليه من الاقتصار فى الحروب على حمل السيوف من بين مختلف أنواع السلاح ، وقدم كل هؤلاء لمحاصرة انطاكية قاصدين تبديد شمل جيش الفرنجة .

ولما صاروا على مقربة من المدينة صادفهم شمس الدولة (١) بن ياغى سيان أمير أنطاكية ، فجرى الى كربوغا متوسلا اليه باكيا ، مخاطبا اياه بقوله : « أيها الامير الذى لا يقهر ، أتوسل اليك أن تقدم لنجدتى لان الفرنجة محاصرى — وأنا فى قلعة أنطاكية — من جميع الجهات ، وقد صارت المدينة فى أيديهم ، وهم يريدون اخراجنا من أرض سلاجقة الروم ومن الشام بل ومن خراسان ذاتها ، وقد أنفذوا ما أرادوا فقتلوا أبى ولا هم لهم الا القضاء على وعليك وعلى جميع أبناء جنسنا ، وما أرقب منك غير عونك تبذله لى ومساعدتك اياى فى هذا المأزق » .

فأجابه كربوغا « اذا شئت أن أنجدك نجدة صادقة وأن أعمل حقا على انقاذك من هذا الخطر فأسلمنى هذه القلعة ، واذ ذاك سترى أى خدمة أؤديها لك ، وسأجعلها فى حراسة رجالى (٢) » .

فقال له شمس الدولة : « اذا استطعت القضاء على جميع الفرنجة وأسلمتنى رءوسهم فسوف أتخلى لك عن القلعة وأغدو تابعا لك ، وحينذاك أعد هذه القلعة من أملاكك » .

---

(١) ورد اسمه فى الاصل اللاتينى Sensadolus هذا ويلاحظ أن الصليبيين احتلوا أنطاكية لكن عزت عليهم قلعتها التى ظل ياغى سيان مقيما بها فى جنده .

(٢) يطابق هذا ما ورد فى ابن العديم : منتخبات من تاريخ حلب ، ص ٥٨٢ وما بعدها .

غير أن كربوقا قال له « كلا ، ليس الامر كما تقول ، بل أن كل شيء مرهون بوجوب تسليمك اياى القلعة » .

فأسلمه شمس الدولة القلعة راضيا أو كارها .

وفى اليوم الثالث (١) من دخـــولنا المدينة صارت ربيئتهم تحت الاسوار ، وعسكر جيشهم عند جسر العاصى ، وهجموا على أحـــد الابراج (٢) ، وقتلوا كل من وجدوه به ، ولم ينج منهم من الموت غــير زعيمهم الذى وجدناه مقيدا بالسلاسل عقب الموقعة العظمى (٣) .

وفى اليوم التالى (٤) تحرك الجيش الوثنى واقترب من المــدينة ، وضرب معسكره بين النهرين ولبث هناك مدى يومين ، فلما تســـلم كربوقا القلعة دعى اليه قائدا (٥) من قواده يقدر فيه الاخلاص والطيبة والهدوء وقال له « أريد منك أن تكون وفيا لى فى حراسة هذه القلعة، لاننى أعرف منذ أمد بعيد قدر وفائك ، واننى لموكل اياها اليك للعناية بها فى المحافظة عليها ، فاجابه القائد « وددت لو اعفيتنى من هذا الامر، ومع ذلك فاننى أقبله على شرط واحد هو أن أبادر الى تسليم القلعة للفرنجة ان هم انتصروا عليك فى وقعة فاصلة » ، فأجابه كربوغا « اننى

(١) هو يوم ٥ يونيو ، وقد ذكر هذا التاريخ Brehier, op. cit., p. 115, note I بناء على ما ورد فى خطاب الامراء الى البابا عقب فتح انطاكية ، وسار Runciman, op. cit., p. 237 على هذا التاريخ .

(٢) حدده Brehier, op. cit., p. 115, n. 3. بأنه احد الابراج القائمة سد مدخل جسر العاصى لحمايته .

(٣) هى وقعة ٢٨ يونيو التى انتصر فيها الفرنجة على كربوغا ، راجع فى تحقيق هذا التاريخ Foucher des Chartres, pp. 248-9.

(٤) يعنى بذلك يوم ٦ يونيو .

(٥) هو احمد بن مروان ، راجع ابن العديم : شرحه .

أعرف تمام المعرفة صدقك وحكمتك ولذلك فانني أقبل كل ما ترى الخير فيه » .

* * *

عاد كربوغا الى جيشه وأراد الترك أن يسخروا من الفرنجة فجاءوا اليه بسيف رخيص قد علاه الصدأ ، وبقوس مسود ، وبحربة لم تعد صالحة للاستعمال كانوا قد أخذوها من جماعة من الحجاج الفقراء ، وقالوا له : « هذه هي الاسلحة التي يحملها الفرنجة في محاربتهم ايانا» فابتسم كربوغا وقال لهم : « أهذه هي الاسلحة القوية المشحوذة التي يرمي النصارى الى التغلب بها علينا في آسيا والتي يعتقدون أنهم متمكنون بواسطتها من طردنا الى ما وراء خراسان وأزالتنا عن تلك الناحية حتى انهار الامازونيين ؟ أولئك النصارى الذين طردوا اخواننا من آسيا الصغرى ومن انطاكية ، تلك المدينة الملوكية والعاصمة العظمى لجميع بلدان الشام ! » .

ثم بادر فبحث في طلب كاتبه وقال له : « أكتب الان جميع المراسيم التي ستقرأ في خراسان وقل فيها : « الى خليفتنا المعظم ، والى مولانا السلطان الجليل الفارس المصلات ، والى جميع فرسان خراسان الحكماء ، السلام عليكم والتوقير لكم ، وبعد فليتهيأ لهم من السعادة والتوفيق الكريم ما يتيح لهم النعمة والوعظ في جميع المناطق ، والانكباب على حميتهم ومتاعهم وانجاب الذرية الضخمة القادرة على قتال النصارى بشجاعة ، وأخذ هذه الجيوش الثلاثة التي استطعنا بها قهر فريق من الفرنجة والذين يعلمون صفة السلاح الذي يصطنعه الشعب الفرنجي لغزونا ، وليعلم الجميع كذلك انني أسرت الفرنجة الموجودين داخل انطاكية وانني احتللت القلعة وصارت في يدي ، وسوف يساقون الى الموت أو الاسر في خراسان لانهم يتوعدوننا بالطرد على يد جيوشهم

وبالنفى خارج بلادنا كما استطاعوا نفى أبناء جنسنا من آسيا الصغرى والشام ، واننى لاقسم لكم بمحمد وبجميع اربابنا (١) اننى لن أظهر بحضرتكم وأمثل امامكم قبل أن أغزو بحد سيفى مدينة انطاكية الملوكية وجميع بلاد الشام وآسيا الصغرى وبلغاريا حتى اقليم أبوليا تمجيدا لآلهتنا ولكم ولجميع الجنس التركى » .

وهكذا كانت خاتمة الرسالة .

٢٢ — أما والدة كربوغا التى كانت بمدينة حلب فقد قدمت لمقابلة ولدها واستخرطت فى البكاء بين يديه وسألته : « يا ولدى . أحقا ما سمعته ؟ »

فسألها « وماذا سمعت ؟ »

قالت « علمت أنك ماض لمحاربة جيش الفرنجة ! »

فأجابها : « لقد علمت الواقع »

فقالت له : « استحلفك يا بنى بجميـــع الارباب وبحق طبيعتك السمحاء أن ترجع عن قتال الفرنجة ، انت أيها الفارس الذى لا يعرف الهزيمة ولم يرك أحد قط هاربا أمام أى فاتح ، ولقد طبق خبر فروسيتك الآفاق ، كما أن أبسل الفرسان ليرتجفون انى كانوا حين يسمعون اسمك ينطق أمامهم ، ونحن نعرف جيدا يابنى انك أخو غمرات ومردى حرب ، عركت الحروب وألممت بفنونها ، ولن تستطيع أية أمة — مسيحية كانت أم وثنية — أن تزهو بقوتها فى وجهك ، بل يهرب الجميع اذا ذكر اسمك كما تهرب النعاج أمام زئير الاسد ، ولهـــذه الاسباب أتوسل اليك

(١) هذه رسالة تمخض عنها خيال كاتب المذكرات ، والخطأ فيها بين وهى تفصح فى جلاء عن مدى جهله المطبق وجهل أهل العصور الوسطى فى الغرب بالاسلام وحقيقته وأن جوهره التوحيد .

يا ولدى الحبيب أن تستمع الى نصائحى وألا تحاول مطلقا التفكير فى قتال الامة المسيحية أو الشروع فى منازلتها » .

فلما سمع كربوغا هذه النصائح الاموية أجابها خائفا : « ماذاتقولين يا أماه وما الذى تحكين ؟ ، أتراك مجنونة أو مستك لوثة ؟ ان معى كثيرا من الامراء الذين لا يتوفر مثلهم للمسيحيين : صغارا كانوا أو كبارا » .

فأجابته أمه « يابنى العزيز : ان النصارى لا يستطيعون الوقوف أمامك فى الحرب وأعرف أنهم عاجزون عن النهوض لقتالنا ، الا أن ربهم يحارب دائما فى صفوفهم ، كما أنه يدافع عنهم ويحميهم ليلا ونهارا حماية الراعى لقطيعه ، ولا يرضى لامة ما أن تمسهم بأدنى سوء أو شقوة ، وان الههم ليؤذى كل متطلع لمقاومتهم مصداقا لما جاء على لسان داود النبى « نشتت الشعوب الذين يسرون القتال (١) » وقوله « أفض رجزك على الامم الذين لايعرفونك، وعلى الممالك التى لم تدع باسمك(٢) » بل انك لترى الههم القوى الذى لا يقهر قد قضى — قبل ان يتهيئوا للقتال — على جميع أعدائهم بواسطة ملائكته ، واعرف الحقيقة يا بنى العزيز وهى أن أولئك النصارى يسمون بابناء المسيح ، وقد جاء على لسان الرسل « انهم أولاد الموعد (٣) » ، وقال الرسول يضا « انهم ورثة الله ووارثون مع المسيح (٤) » وهم الذين منحهم الرب الميراث الذى وعدهم اياه لانه القائل على لسان الرسل « من المشرق الى المغرب تكون

---

(١) مزامير ، ٦٧ : ٣١ .
(٢) مزامير : ٧٨ : ٦ .
(٣) رسالة بولس الى أهل رومية ٨ : ٩ ، والرسالة الى أهل غلاطية ، ٤ : ٥
(٤) رسالة بولس الى أهل رومية ٨ : ١٧ .

قوتهم و لايقف انسان فى وجههم (١) » ، فمن ذا الذى يستطيع معارضة هذه الاقوال أو مناهضتها ؟ والواقع أنك اذا بدأت بحربهم بؤت بالخسارة الفادحة والعار المقيم ، وستفقد كثيرين من فرسانك المخلصين . وتخلف وراءك كل غنيمتك هاربا بينما يلاحقك الفزع الشديد . أجل ! انك لن تموت فى هذه المعركة بل فى بحر السنة ذلك لان الرب فى غضبه لا يدين فورا من أساء اليه بل يمهله ويؤجل حسابه الى اللحظة التى يشاؤها هو ذاته ، فينتقم منك أفظع انتقام . ولهذا السبب أخشى ان يراك مستحقا العذاب الشديد ، لكننى أقول لك انك ستفقد كل ماتمتلكه الآن يداك » .

تأثر كربوغا غاية التأثر بماسمع وأجاب أمه على كلامها بقوله : « يا أمى الغالية : أتوسل اليك ان تذكرى لى من ذا الذى أنبأك بكل هذا القول عن الشعب المسيحى ؟ ومن أنبأك أن ربه يحبه الى هذه الدرجة حتى ليمده بمثل هذه القوة فى القتال ؟ ومن ذا الذى حمل اليك أن الغلبة ستكون لهؤلاء المسيحيين علينا أمام أنطاكيـــة وأنهم سيستولون على غنائمنا ويمضون فى آثارنا عقب نصرهم المؤزر علينا ، ومن قال لك ان المنية سوف تخترمنى فجأة فى سنتى هذه ؟

فقالت له أمه والحزن يمضها مضا : « يا بنى العزيز ، لقد تبين بعضهم منذ أكثر من مائة سنة أنه جاء فى كتابنا وفى كتابات الوثنيين ان الامة المسيحية ستهاجمنا وسيعقد لها النصر علينا فى كل ناحية ، وأنها ستسود الوثنيين ، وأن شعبنا سيخضع لها ، ولكننى لست أدرى عما اذا كان مقدرا لجميع هذه الحوادث أن تحدث الان أم لم يحن زمنها بعد ، ولقد تبعتك — والاسى يرمضنى — من حلب . تلك المدينة العظيمة التى استطعت فيها عن طريق التدقيق والبحوث الحاذقة من مطالعة

---

(١) التثنية ١١ : ٢٤ ، ويشوع ١ : ٥٤ .

النجوم ومساءلة الكواكب والبروج الاثنى عشر والتنبؤات العـــدة ، فأنبأتنى كل هذه الظواهر أن الشعب المسيحى سيقهرنا انى كنا ، واننى لاضطرب فزعا وحزنا مخافة ان أحرم منك » .

فأجابها كربوغا : « يا أمى الغالية ، أفضى الى بكل ما يأبى قلبى ان يؤمن به » .

فقالت له أمه « ما كان لى الا أن ألبى ذلك الطلب عن طيب خاطر يا ولدى الحبيب لو كنت أعرف الامور الخافية عليك » .

فقال لها « ان بوهيمند وتنكريد ليسا آلهة الفرنجة ولا يخلصانهم من أعدائهم لانهما يأكلان فى المرة الواحدة ألفى بقرة واربعـــة آلاف خنزير (١) »

فقالت لهأمه « يابنى العزيز، ان الموت جائز على بوهيمند وتنكريد جوازه على سائر البشر ، الا أن ربهما فضلهما على غيرهما ومنحهما قوة يحاربان بها الجميع ، ولان ربهم الرحمن — تقدس اسمه — يقول « انه صنع السماء والارض والبحر وكل ما فيها » (٢) وان عرشـــه موجود فى السماء منذ الازل وبأسه مرهوب فى كل مكان » .

فأجابها ابنها « لن أكف عن قتالهم حتى ولو كان الامر كما تزعمين» فلما أدركت أمه أنه غير مستجيب لتبكيتها الشديد انصرفت عنه وقلبها

---

(١) النص اللاتينى لهذه الترجمة هو

Non sunt igitur Boamundust et Tancr-
edus Francorum dii et non eos Liberant de inimicisuis et quod ipsi manducant in uno quoque prandio II milia voccas et IV milia porcos"

وقد علق الاستاذ بريبه على هذا بقوله « ان فى هذه الفكرة الساخرة غموضا » ولكن المتأمل للمحادثة بأكملها يرى مقدار ما أعمله خيال صاحب الحوليات فى هذا الحديث الخرافى .

(٢) الخروج ٢ : ١١ .

يتفطر حزنا وانكفأت راجعة الى حلب ، حاملة معها كل ما استطاعت حمله من الغنيمة .

٢٣ — وفى اليوم الثالث (١) لبس كربوغا لامة الحـــرب ودنى من المدينة فى زمرة كثيفة من الترك وجاءوها من الناحية التى تقوم فيها القلعة، ولما كنا نظن ان فى امكاننا دفعهم فقد تهيأنا لمحاربتهم ، الا أنهم أبدوا بأسا شديدا عجزنا حياله عن مقاومتهم ، وبذلنا الجهد الجهيد حتى استطعنا الارتداد الى المدينة التى كان بابها شديد الضيق ، حتى لقد مات الكثيرون مخنوقين تحت أقدام رفاقهم .

وفى خامس ايام الاسبوع كان البعض يحارب خارج المدينة والبعض الآخر داخلها (٢) ، وظلوا على تلك الحال طول يومهم هـــذا حتى تلفع الكون بالظلام ، وفى هذه الاثناء استولى الفزع من معركة البارحة التى دامت حتى الغسق على نفس وليم دى جراندميل وأخيه أوبرى ، وجى تروسو ، ولامبرت الفقير « كونت كلير مونت » فتسربلوا بالظـــلام وانسلوا مترجلين تحت جنح الدجى هاربين مصاقبين للسور الموازى لسيف البحر ، حتى لقد عرقت يديهم وأقدامهم فلم يبق منها سوى العظام ، وصاحبهم فى فرارهم هذا كثيرون لا أعرفهم .

فلما بلغوا السفن الراسية فى ميناء سمعان قالوا لملاحيها « ماتفعلون هنا أيها التعساء ؟ لقد هلك رجالنا عن بكرة أبيهم ، ولم تكن نجاتنا الابعد عسر شديد ، وذلك لان الجيش التركى حاصر المدينة من جميع نواحيها

---

(١) أى اليوم الثالث من مقدم كربوغا يعنى يوم ٨ يونيو .

(٢) يستفاد مما جاء فى خطاب الامراء الى البابا الوارد فى Epistulae et Chatrae, p. 162. أن فئة من الترك قوامها مائة رجل استطاعوا اقتحام القلعة .

ونجن بها » . فلما سمعوا هذا القول اعتراهم الذهول ، ثم ما لبث الفزع ان استبد بهم فانطلقوا الى سفنهم مبحرين ، فهب الترك فيآثارهم وقتلوا كل من عثروا عليه منهم ، ثم أضرموا النار فى المراكب الراسيةفى مجرى النهر واستولوا على أسلابهم .

أما نحن الذين بقينا (فى المدينة) فلم نعد نستطيع احتمال وطأة أسلحتهم ، وأقمنا بينهم وبيننا سدا تناوبنا حراسته ليلا ونهارا ، وفى هذه اللحظة بالذات بلغ من ضيق الحصـــار علينا أن اضطررنا لاكل خيولنا وحميرنا .

٢٤ — وفى ذات يوم من الايام كان زعماؤنا مجتمعين فى أعلىالمدينة أمام القلعة وهم فى غاية الحزن واليأس حين مثل امامهم أحد القســس(١) قائلا لهم : « أيها السادة ، هل لكم أن تصغوا الى ما رأيته فى الحلم ؟ بينما كنت الليلة نائما فى كنيسة القديسة مريم — والدة سيدنا يسوع المسيح — اذ ظهر لى مخلص العالم ومعه أمه وبطرس الطوباوى سيد الحواريين ، واقترب منى قائلا « أو تعرفنى ؟ » قلت « كلا » .

وحينذاك رأيت صليبا كاملا على رأسه ، فسألنى السيد ثانية « أو عرفتنى الان ؟ » .

فقلت له : « ما كان لى أن أعرفك لو لم أر على رأسك صليبا يماثل صليب مخلصنا » .

فقال لى : « اننى هو بعينه » .

وفى الحال ركعت على قدميه متذللا متوسلا اليه أن ينقذنا مما نحن

---

(١) يسمى هذا القسيس ستيفن فالنتان ، راجع فى ذلك
Raymond d'Aguilers, p. 286.

فيه من الكوارث فأجابني السيد : « لقد ساعدتكم ، وانني ماض الآن لمعونتكم كما مكنتكم من الاستيلاء على نيقية ، وكما أخذت بقيادكم حتى وصلتم الى هنا ؛ ولقد حز فى نفسى ما كابدتموه من مشقة أثناء حصار أنطاكية ، ولكنكم استطعتم بفضل مساعدتى لكم أن تدخلوا المدينة سالمين آمنين ، بيد أنكم زنيتم مع نساء فاسدات من النصرانيات والوثنيات ، فتصاعد النتن حتى بلغ السماء » .

وحينذاك ركعت المقدسة وبطرس الطوبارى على قدميهما مستعطفين اياه متوسلين اليه أن يعين شعبه فى محنته هذه التى ألمت به ، وقال له بطرس المبارك : « يا سيد ، لقد طال احتلال الشعب الوثنى لبيتى الذى لقى من جراء هذا الامر مساوىء يعجز اللسان عن وصفها ، والآن فلنطرد الاعداء أيها السيد ولتفرح الملائكة فى سماواتها» .

فقال لى السيد : « اذهب الى شعبى وقل له أن يعود لى وسأرجع أنا اليه ، ودونه خمسة أيام سأبعث اليه بعدها بنجدة عظمى ، ومره أن يرتل كل يوم هذه التسبيحة مع بقية الآيات « هو ذا الملوك اجتمعوا (١) » .

والآن أيها السادة اذا خالجكم الشك فى صدق ما أقول فأذنوا لى أن أعتلى هذا البرج ، وأن أطرح نفسى بيدى الى أسفله ، فان سلمت فآمنوا بما قلت ، وان مسنى سوء فاقتلونى أو اجعلونى طعمة للنار » .

حينذاك أمر أسقف پوى باحضار الاناجيل والصليب ليقسم ذلك القسيس على صدق ما قال ، وفى تلك الساعة اتفق زعماؤنا أن يقسموا بسر القربان المقدس الا يحاول أحدهم — حيا — أن يفر أو يهرب من الموت أو انقاذ حياته .

---

(١) مزامير ، ٧٤ : ٤ . وهنا ينتهى الحلم .

ويقال ان بوهيمند كان اول من أقسم ، ثم تلاه كونت صنجيل ، فروبرت النرمندى ، فالدوق جودفروى ، فكونت فلاندر .

أما تنكريد فلم يكتف باليمين بأنه لن يتنحى أبدا فى هذه الحرب فحسب بل وأنه لن يتخلى مطلقا عن السير فى طريق القبر المقدس حتى ولو لم يبق سوى أربعين فارسا .

فلما تناهى خبر هذه اليمين الى الجيش المسيحى دبت الفرحة بين رجاله جميعا .

٢٥ — وكان هناك حاج من جيشنا اسمه بطرس (١) ، تراءى له القديس أندراوس الرسول قبل (٢) دخولنا المدينة قائلا له : « ماذا تفعل هنا أيها الصنديد ؟ » .

فأجابه « وأنت ؟ من أنت ؟ » .

فقال له الرسول « اننى الحوارى أندراوس ، اسمع يا بنى : عرج — حين دخولك المدينة — على كنيسة القديس بطرس ، وستجد بها حربة مخلصنا يسوع المسيح التى طعن بها حين رفع على خشبة الصليب » ، ثم اختفى الرسول بعد أن فرغ من هذه العبارة .

ولما كان هذا الرجل (٣) خائفا من الجهر بما أشار به الحوارى

---

(١) هو بطرس بارتلمى صاحب الرؤى الكثيرة فى هذه الفترة ، وكان من جماعة البروفنساليين .

(٢) اهتم المؤرخ Raimond d'Aguilers, pp. 253-55. برؤى بطرس برتلمى وراح يعددها فكانت خمسا تراءى له فيها القديس أندراوس ، أولاها فى ٣٠ ديسمبر ١٠٩٧ ، وثانيتها يوم ١٠ فبراير ١٠٩٨ ، والثالثة يوم ٢٠ مارس ، والرابعة أثناء ذهابه الى قبرص ، والخامسة فى ١٠ يونيو ١٠٩٨ حيث صارح الامراء غداة هذا اليوم بالحلم .

(٣) يعنى بذلك بطرس بارتلمى .

عليه فقد أمسك عن مصارحة حجاجنا بذلك الحلم ، وظن أن ما جرى ليس سوى أضغاث أحلام . وقال « يا سيدى : ترى من يستطيع الايمان بهذا ؟ » . وفى هذه اللحظة بالذات أخذه القديس أندراوس وسار به شطر الناحية التى كانت الحربة مطمورة فيها تحت الارض .

وفى اللحظة التى كنا موجودين فيها فى الموقف الذى ذكرته آنفا(١)، عاد القديس أندراوس الى بطرس وقال له : « لماذا لم ترفع الحربة من باطن الارض كما أشرت عليك ؟ ألا فاعلم أن لن يغلب قط قوم يحملون هذه الحربة معهم فى القتال » .

وفى الحال أفضى بطرس الى حجاجنا بالسر الذى استودعه اياه الرسول الحوارى ، فلم يؤمن القوم بما قال بل أنكروه قائلين له « كيف نعتقد صحة هذا القول ؟ » .

والواقع أن الخوف كان مستوليا على نفوسهم ، وكانوا يتوقعون الموت بين لحظة وأخرى ، فذهب بطرس اليهم وأقسم لهم أنه صادق فى كل ما قال ، وأن القديس أندراوس تبدى له مرتين (٢) وقال له : « انهض وامض الى شعب الرب وقل له ألا يخشى شيئا ، بل عليه أن يؤمن ايمانا صادقا من كل قلبه باله حقيقى واحد ، وانه سينتصر فى كل مكان ، وأن السيد سوف يبعث اليه فى الايام الخمسة التالية برسالة تملؤكم فرحا ونشوة ، واذا أراد الشعب المحاربة فليخرج بأجمعه متحدا الى القتال ، وسيظهر على جميع أعدائه الذين لن تقوم لهم بعد ذلك أبدا قائمة ضده » .

---

(١) وذلك حين كان كربوغا محاصرا الصليبيين (يوم ١٠ يونيو) .

(٢) راجع حاشية رقم ٢ ص ٨٢ .

فلما سمع الحجاج بأن القضاء التام على عدوهم سيكون على أيديهم تنفسوا الصعداء ، وأخذ بعضهم يشجع البعض الآخر قائلا : « هبوا وكونوا شجعانا فطناء ، لان الرب سيبادر حالا لمعونتنا ، وستكون التعزية لشعبه الذى يرى الآن ما هو فيه من كرب » .

٢٦ ــ أما الترك الذين كانوا موجودين فى الناحية العليا بالقلعة فقد راحوا يتقدمون حتى صاروا على مقربة منا ، ونجحوا ذات يوم فى محاصرة ثلاثة من فرساننا فى برج واقع قبالة قلعتهم ، والواقع أن الوثنيين قد وجدوا مخرجا لهم وطاردوهم بعنف شديد لم يستطيعوا حياله الصبر على مجالدتهم ، وخرج من البرج فارسان طعينان : أما الثالث فقد استبسل فى الدفاع عن نفسه ضد هجوم الترك عليه مدة يوم كامل ، فصرع فى اليوم ذاته اثنين منهم أما السور بعد أن تكسرت الحراب ، فقد انحطم بين يديه فى ذلك اليوم ثلاث حراب ، ولقى الرجلان مصرعهما ، أما اسم هذا [الفارس] فهو هيج الثائر ، وكان من جماعة جود فروى دى مونت سكابيوزو (١) .

فلما رأى بوهيمند الموقر انهمن المستحيل عليهأن يجد رجالا لمهاجمة القلعة لوجود الجميع فى بيوتهم من أثر المجاعة والخوف من الترك ، اشتد به الغضب ، وأمر باحراق المدينة من الناحية القائم بها قصر ياغى سيان ؛ فلما تراءى هذا المنظر للجماعة التى كانت بالمدينة غادرت مساكنها وخلفت كل ما تملك هاربة بنفسها ، فانطلق فريق ناحية الحصن ، ومضى آخر الى باب كونت صنجيل ، وفريق ثالث الى باب جود فروى ، أى أن كل فريق هوب شطر الجماعة التى ينتسب اليها.

---

(١) لا يعنى ذلك وجود « جود فروى دى مونت سكابيوزو » فقد ذكرت الجستا فيما سبق (ص ٤١ ، س ١٠) انه لاقى مصرعه فى وقعة اسكى شهر .

وفي هذه اللحظة هبت فجأة ريح عاصفة لم يستطع أحد ما حيالها أن ينتصب واقفا مما أحزن بوهيمند العاقل حزنا شديدا جزعا من ان يمتد الحريق (١) الى كنيستي القديس بطرس والقديسة مريم وسواهما من الكنائس ؛ واستمرت هذه المحنة من الساعة الثالثة حتى منتصف الليل ، وأتت النار على ألفى بيت وكنيسة ، ثم خمدت جذوتها حين أوشك الليل على الانتصاف .

أما الترك الموجودون داخل المدينة فلم يكفوا عن محاربتنا أثناء الليل وأطراف النهار ، ولم يكن يمنعنا منهم سوى دروعنا ، ولما رأى رجالنا أنهم لم يعودوا يحتملون هذه المتاعب نظرا لانه لم يعد يسمح بأكل الخبز لمن معه الخبز ولا يشرب الماء لمن معه الماء ، فقد بنوا بينهم وبين الترك حائطا من الجير والكلس ، وشيدوا حصنا جهزوه بالآلات المختلفة لضمان طمأنينتنا ، كما أقام فريق من الاتراك في القلعة لمحاربتنا ؛ أما الفريق الآخر فقد عسكر في واد قريب من القلعة .

ولما أقبل الليل لاحت في السماء نار مقبلة من الغرب ، وأخذت في التداني حتى سقطت وسط الجيش التركي ، فاستولى الذهول الشديد على رجالنا وعلى الترك معا ، فلما تبلج الصباح فر المذعورون جزعا من هذه الظاهرة العلوية (٢) ، حتى اذا بلغوا باب بوهيمند نصبوا عنده معسكرهم .

أما حامية القلعة فقد دأبت على مهاجمة رجالنا ليلا ونهارا ، تاركة اياهم ما بين جريح وقتيل بسهامها ؛ أما بقية الترك فقد أخذت في

(١) يستفاد مما ذكر Raoul de Caen, p. 661 أن صاحب فكرة اشعال النار هو ريموند كونت فلاندر حيث أشار بها على بوهيمند فاستصوبها وفعل ما هو وارد بالمتن اعلاه .

(٢) راجع Raimond d'Aguilers, p. 257 حيث يسهب في وصفه الظاهر ويلاحظ انه يولي اهتماما خاصا في كتاباته بكل ما يبدو خارقا للطبيعة في نظره ويعتبره بشارة سماوية .

محاصرة المدينة من جميع نواحيها حصارا شديدا لم يجرؤ حياله أحد من جماعتنا على الخروج منها أو الدخول اليها الا ليلا أو خفاءا ، وبذلك كنا نعانى الحصار ونكابد الضيق على أيدى أولئك الاعداء الذين كانوا فى العدد الكثيف .

أخذ أعداء الرب الدنسون هؤلاء فى تضييق الحصار علينا ونحن داخل أنطاكية حتى لقد مات الكثيرون منا جوعا ، وحتى كان الرغيف الصغير يباع ببيزنتية ، ولا حاجة للكلام عن النبيذ ، فكان الفرنجة يأكلون لحوم الخيل والحمير ويتبايعونها ، كما بيعت الدجاجة بخمس وعشرين سوسية ، والبيضة بسوستين ، والجوزة بدنية ، وبذلك كان كل شىء يباع بثمن يفوق الوصف ، ومن ثم عمت المجاعة واشتد هولها ، حتى لقد كان البعض يقيم المطابخ يقدم فيها الى القوم أوراق التين والعنب والحسك ، وأقام البعض الآخرون المطابخ يطهون فيها جلود الجياد والجمال والثيران والجاموس اليابسة ؛ ولقد تكبدنا كل ذلك الهم وتلك الشدة وأمثالها مما يستحيل وصفها فى سبيل اسم المسيح ، ولكى نفتح الطريق حرا الى الضريح المقدس .

وهكذا بقينا ستة وعشرين يوما فريسة لهذه المحن والمخاوف وأمثالها .

٢٧ — كذلك قام استيفن كونت شارتر (١) الذى تنكب طريق السداد ، والذى انتخبه كبراؤنا رئيسا أعظم ، فتظاهر بالمرض قبل الاستيلاء على أنطاكية ، وارتد خزيانا يجلله العار الى مدينة أخرى

---

(١) هو الذى يرى الكونت ريان أن مؤلف هذه الجستا كان كاتبا له ، راجع مقدمة هذه الترجمة العربية ، ويلاحظ ان المودة كانت قوية بين الكونت وبين الامبراطور الكسيوس الذى أدرك ما انطبع عليه الكونت من حب الظهور فأولاه عناية خاصة منذ مقدمه عليه فى القسطنطينية .

حصينة تسمى بالاسكندرونة ، ورحنا ننتظر كل يوم مجيئه لمساعدتنا — ونحن كما نحن داخل المدينة — دون معونة تخلصنا مما نحن فيه .

أما هو فما كاد يعلم بأن جيش الترك محدق بنا ومحاصر ايانا حتى تسلل سرا وصعد جبلا (١) قريبا مجاورا لانطاكية وشاهد الخيم التى لا يحصيها العد ، واذ ذاك استبد به الفزع الشديد وارتد هاربا بجنده على جناح السرعة ، حتى اذا رجع الى معسكره قوضه ورحل (٢) برجاله موليا الادبار .

ولما دخل على الامبراطور فى « اكسشهر (٣) » سأله الانفراد به وقال له : « اعلم أن قد تم استيلاء الترك على انطاكية ، أما القلعة فلم تقع فى يدهم بعد ، كما عانى رجالنا شدة الحصار ، والارجح أنهم لاقوا الموت جميعا على أيدى الترك ، وعليك أن ترجع بأسرع ما يمكنك حتى لا تقع فى أيديهم أنت وجندك الذين معك » .

حينذاك جزع الامبراطور جزعا شديدا ، واستقدم اليه سرا

---

(١) الوارد فى Brehier : Histoire Anonyme, p. 141, N. 6 ان هذا الجبل يسمى بالجبل الاحمر الذى يشرف على سهل أنطاكية الشمالى .

(٢) يستفاد مما ذكره Foucher de Chartres, p. 228 أن رحيل ستيفن كونت شارتر كان فى اليوم السابق لسقوط أنطاكية فى أيدى الصليبيين ، يعنى بذلك يوم ٢ يونيو ، راجع أيضا Raimond d'Aguilers, p. 258.

(٣) الواقع أن الذى جاء بالكسيس الى هكذه البلدة هو أنه كان فى طريقه لانجاد الفرنجة ومساعدتهم فى فتح أنطاكية ، راجع فى ذلك Albert d'Aix, op. cit., p. 416.

(٤) هو جى بن روبرت جسكارد وأخد بوهيمند لكن من أم ثانية ، وكان مجىء جى الى الشرق البيزنطى فى حملة أبيه عام ١٠٨٤ ، غير أنه ترك جيش أبيه وانضم الى خصمه الامبراطور ودخل فى خدمته ، راجع Chalandon : Histoire de la Domination Normande en Italie, t. I, p. 282.

(٥) كان من هذه الجماعة وليم دى جراندميل وبطرس الابوسى اللذان يرد ذكرهما فى صفحات الجستا ، وقد أورد هذين الاسمين Brehier : op. cit., d'après Anne Comnène

« جى (٤) » أخا بوهيمند وجماعة (٥) غيره وقال لهم « أيها السادة ترى ما الذى نحن فاعلوه ؟ هاهم الترك قد ضيقوا الخناق على جميع رجالنا ، وربما يكونون قد فتكوا بهم فى لحظتنا هذه أو أخذوهم أسرى كما يذكر لنا هذا الكونت الذى هرب خزيانا ، فعلينا أن نبادر بالتقهقر السريع اذا شئتم حتى لا ينالنا ما نال إخواننا من الهلك المروع » .

فلما سمع جى — الفارس المصلات — هذه الاكاذيب استخرط فى البكاء هو ومن معه ، وأنوا أنينا طويلا وضاحوا :

« أيها الرب القوى ، أيها الثالوث الواحد ، لماذا رضيت بحدوث جميع هذه الامور ؟ لماذا قبلت لشعبك المؤمن بك أن يقع فى أيدى عدوه ؟ لماذا سارعت فهجرت أولئك الذين يحاولون تعبيد الطريق الى هيكلك وجعله آمنا حرا ؟ يا رب : لو تحقق ما سمعناه من فم أولئك التعساء فاننا سنهجرك نحن والنصارى الآخرون — ولن تعود تخطر ببالنا ، ولن يجرؤ أحدنا بعد ذلك أبدا على الدعاء باسمك ! » .

وسرى هذا النبأ المشئوم بين الجيش بأجمعه ، حتى لقد انقضت بضعة أيام ولم يهتف فيها أحد من الاساقفة أو المطارنة أو رجال الدين أو الدنيويين من ذكر اسم المسيح (١) .

والواقع أنه لم يستطع أحد أن يقوم على مواساة « جى » الذى دأب على البكاء وضرب صدره ولى أصابعه وهو يقول « أواه ياسيدى بوهيمند يا شرف الدنيا وزينتها ، يا من كان العالم يرهبه ويحبه ، واشقوتاه ! أى قاصمة داهية نزلت بى ! أما كنت بالمستحق فى رزيتى أن أرى طلعتك المبجلة ؟ لقد كان ذلك غاية سؤلى وطلبى ! من ذا الذى

---

(١) Cf. Albert d'Aix, p. 417.

يمكنني من افتدائك بنفسي يا سـيدي وصـديقي الغالي ! لمـاذا لم يخترمني الموت يوم خرجت من بطن أمي ؟ ولماذا قدر لي أن أعيش حتى أشهد يومك المشئوم ؟ لماذا لم يبتلعني أليم ؟ لم لم يكب بي جـوادي فيدق عنقي ؟ كم كنت أرجو أن أكون معك فأنال هذه الشهادة الكريمة وأراك تموت ميتتك الشريفة ؟ » .

ولما قدم الجميع لتعزيته ومواساته استفاق من غشيته وقال لهم « ترى ما ظنكم بهذا الفارس الاشيب الذي ضل الصواب ؟ هل سمعتم قط أنه أنجز أي عمل من أعمال الفروسية ؟ كلا لقد اختفى متسربلا بالعار هضيم الجانب كما يختفي الآثم الشقي ؛ ألا فاعلموا جميعا بأن كل ما تخرس به هذا المنكود ان هو الا افك باطل ! » .

وفي هـذه الاثناء أرسل الامبراطور تعليماته وأوامره الى رجاله قائلا لهم : « امضوا وقودوا جميع رجال هذه الناحية الى بلغاريا ، وجوسو الاقليم فخربوا الاماكن حتى اذا جاء الترك لم يجدو شيئا ما » .

فارتد رجالنا — ان طوعا أو كرها — وهم في غاية الحزن المقيـم المهلك ، ودب الخور في نفوس كثير من حجاجنا وأصبحوا عاجزين عن متابعة الجيش فتوقفوا عن الزحف ، وهلك بعضهم في أثناء الطريق ؛ أما الباقون فقد عادوا الى القسطنطينية .

٢٨ — ولمـا سمعنا أقوال الذي (١) نقل الينا ايحاء المسيح على لسان الرسول ، انطلقنا بأقصى سرعة شطر ناحية كنيسة القـديس

---

(١) يقصد بذلك بطرس بارتلمي .

بطرس التى ذكرها ، واشتغل ثلاثة عشر رجلا فى الحفر من الصباح حتى المساء ، وحينذاك (١) عثر هذا الرجل على الحربة فى الموضع الذى أشار اليه ، فتلقاها القوم بفرح شديد وهيبة عظيمة ، وعمت المدينة بهجة شاملة .

وفى هذه اللحظة عقدنا فيما بيننا مجلسا حربيا للتشاور فيما نصنع ، وحينذاك انعقد اجماع زعمائنا على المبادرة بانفاذ رسول الى الترك — أعداء المسيح — ليسألهم — على يد أحد المترجمين — هذا السؤال الصريح « عما دعاهم الى اقتحام أرض المسيحيين وهم فى ثورة غضبهم ، وما الذى دفعهم لضرب معسكرهم هناك وفتكهم بخدام المسيح وقتلهم اياهم » ، ولما انتهت المشاورة جاءوا ببعض الرجال ومنهم بطرس الناسك وهرلوان Herlouin ، وألقوا اليهم بهذه التعليمات قائلين لهم : « اذهبوا فابحثوا عن جيش الترك الملعون وقصوا عليه هذا كله فى دقة ، واسألوهم لماذا دعاهم غرورهم وبطشهم الى اقتحام أرض المسيحيين التى هى أرضنا نحن أيضا » .

فلما سمع الرسل هذه الكلمات انطلقوا لتوهم (٢) وجاءوا مجمع الكفرة وأفضوا الى كربوغا ورجاله برسالتهم التى جاء فيها « لقد عجب زعماؤنا وساداتنا كل العجب من أن يدفعكم التهور والحمق الى اقتحام أرض النصارى التى هى أرضهم هم أيضا ، أفهل لنا أن نظن ونعتقد أنكم قد قدمتم الى هنا لاعتناق المسيحية ، أم ترون أن الدافع لكم

---

(١) كان العثور عليها يوم ١٤ يونيو كما جاء فى Raimond d'Aguilers, p. 257

ويلاحظ أن هذا المؤرخ (أى ريموند) هو الذى اعتنق الحربة وقبلها ، وتذهب الرواية الاسلامية الى أن « راهبا مطاعا من الفرنجة — وكان داهية من الرجال — كان قد دفن حربة فى مكان بالكنيسة ، ثم أدخلهم الموضع ومعهم عامتهم والصناع وحفروا جميع الاماكن فوجدوها » ، راجع ابن الاثير : الكامل ، ح ٨ ص ١٨٧ .

(٢) Foucher de Chartres, p. 347; Albert d'Aix, p. 420.

المجيء هو انزال شتى ضروب السوء بالنصارى بمختلف الطرق ؟ وان زعماءنا جميعا ليسألونكم الارتداد عن أرض الرب والمسيحيين التى هدتها قديما موعظة الرسول بطرس الطوباى الى الايمان بمذهب المسيح ، وان زعماءنا ليأذنون لكم بأخذ كل مالكم من الخيول والبغال والحمير والابل والماشية والثيران وجميع ما تملكون ، كما يأذنون لكم بنقل ذلك كله معكم حيث شئتم » .

حينذاك أخذت العزة بالاثم كربوغا — قائد جيش ملك فارس — وجميع من معه وأجابوهم فى غلظة :

« انــا لا نبالى بربكم ولا بنصرانيتكم ولا نميـل لشيء منها بل نسحقها واياكم فى آن واحد سحقا تاما ، وما حملنا على المجيء الى هاهنا الا دهشتنا من أن يدعى السادة والزعماء الذين ذكرتموهم ملكية ارض سلبناها نحن من الامم المدللة ، أفهل تريدون معرفة ردنا عليكم ؟ . عودوا على جناح السرعة الى سادتكم وقولوا لهم انهم اذا كانوا يريدون أن يتتركوا وينبذوا ربكم الذى تسجدون له ويهجروا شرائعكم التى أنتم عليها الآن فاننا نعطيهم هذه الارض وما هو أكثر منها ، ونهبهم المدن والحصون فلا يبقى أحد منكم راجلا ، بل ستكونون جميعا فرســانا مثلنا ، وستتوثق بيننا وبينكم صداقة مكينة ومودة راسخة ، وان لم يفعلوا ذلك فعليهم أن يدركوا أنهم سوف يلاقون الموت أو نقودهم مكبلين بالاصفاد الى خراســان حيث يبقــون فى أسرنا الى الابد ، ونستعبدهم نحن وأبناؤنا على مر العصور » .

سرعان ما انكفأ رجالنا الينا وأفضوا لنا بكل ما أجابتهم به هــذه الطغمة الفظة الغليظة ؛ ويقال ان هرلوان الذى يعرف اللسانين [الفرنجى والفارسى] كان يقوم بالترجمة لبطرس الناسك .

وفى هذه الاثناء ألمت بجشينا نكتبان لم ندر ما نفعل حيالهما، أولاهما المجاعة الفظيعة التى أضنتنا ، وثانيتهما الفزع الشديد الذى استولى علينا من الترك .

٢٩ — بعد أن فرغ الجميع من صيامهم الذى دام ثلاثة أيام ونفضوا أيديهم مما تلاه من الاحتفالات التى أقاموها فى شتى الكنائس أخذوا فى الاعتراف بخطاياهم . فلما انتهوا من ذلك كله تناولوا القربان الذى هو جسد المسيح ودمه ، ثم وزعوا الصدقات وأقاموا القداسات .

ثم أقامت ست فرق من المقاتلين داخل المدينة ، أما الفرقة الاولى التى تقدمت سواها فكان بها هيج العظيم وبصحبته الفرنسيون وكونت فلاندر : وفى الثانية دوق جـــود فروى ورجاله ، وفى الثالثة روبرت النرمندى مع فرسانه ، وكانت الفرقة الرابعة بقيادة أسقف بوى الذى حمل معه (١) حربة المخلص وكان معه رجاله وأتباع ريموند الصنجيلى الذى تخلف لحراسة الحصن خوفا من هجوم الترك عليه ومنعا لهم من النزول الى المدينة ، وكان فى الفريق الخامس تنكريد — ابن المركيز — بصحبة رجاله ، وفى الكتيبة السادسة بوهيمند الفطن مع فرسانه .

ولـــا تدثر أساقفتنا وقسسنا وكهنتنا ورهبانـــنا بحللهم المقدسة خرجوا معنا حاملين الصلبان ، ممجدين السيد ومبتهلين اليه أن ينقذنا من كل شر ، بينما إعتلى آخرون الباب رافعين الصليب فى أيديهم ، ورسموا علينا علامة الصليب وباركونا ، ولما تجهزنا وتدرعنا بالصليب خرجنا من ناحية الباب المقابل للمحمرة .

---

(١) الواقع يؤيد أن أسقف بوى لم يكن يحمل الحربة بنفسه لانه كان يشك فى حقيقتها ، وكان الذى يحملها فى هذه الوقعة المؤرخ ريموند داجويل ، راجع فى ذلك
Runciman : History of the Crusades, Vol. I, p. 246.

ولما رأى كربوغا ما عليه كتائب الفرنجـــة من الترتيب الرائع وهى خارجة واحدة فى اثر الاخرى قال « دعوهم يخرجوا فلن يكونوا حينذاك خيرا مما لو كانوا فى أيدينا (١) » الا أنه ما كاد يرى جيوش الفرنجةاللجبة تغادر الابواب حتى اســتبد به الذعر ، وسرعان ما أمر قائده المــوكل بالحراسة العامة أن يعلن الارتداد اذا شاهد النار تتأرجح فى مقدمــة الجيش ، اذ تكون الهزيمة حينئذ قد حاقت بالترك .

وفى الحال شرع كربوغا فى الارتداد على مهل شطر الجبل ورجالنــا فى أثره بنفس الخطى . ثم انشطر الترك شطرين : اتجه أحدهما ناحية البحر بينما أقام رجال الفريق الآخر (٢) فى مكانهم مؤملين أن يحصرونا، فلما شعر رجالنا بما يبيته العدو لهم فعلوا فعله ، فسيروا كتيبة سابعة مؤلفة من قوات الدوق جود فروى وكونت نرمندى ، وألقــوا قيادتها الى رينالد ، وبعثوها لصد الاتراك القادمين من جهة البحر ، فالتحم الترك برجالنا وقتلوا كثيرين منهم بنبالهم ، وتجهزت كتائب أخـــرى امتدت من النهر حتى الجبل شاغلة مساحة ميلين .

شرعت تلك الكتائب فى التقدم من الناحيتين وأحدقت برجالنــا تنضحهم برماحها وترميهم بأقواسها ، كما شوهدت قوات لا يحصيها

---

(١) يتفق هذا تماما مع ما ذكره ابن الاثير : الكامــــل ، ج ٨ ص ١٨٧ من أن الفرنجة خرجوا متفرقين « فقال المسلمون لكربوغا ينبغى ان تقف على الباب فتقتل كل من يخرج فان أمرهم الآن وهم متفرقون سهل » ، فقال « لا تفعلوا : أمهلوهم حتى يتكامل خروجهم فنقتلهم » ولم يكن بد من معاجلتهم ، فقتل قوم من المسلمين جماعة من الخارجين فجاء اليهم هو بنفســه ومنعهم ونهاهم » .

(٢) هؤلاء هم « المجاهدون » كما سماهم ابن الاثير ، شرحه ، حيث يذكر أن كربوغا انهزم مع المنهزمين « وثبت جماعة من المجاهدين وقاتلوا حسبة وطلبا للشهادة » .

النعد تنطلق من ناحية الجبل ممتطية صهوة جياد بيضاء وبيدها رايات بيض ، فلما شاهد رجالنا منظر هذا الجيش لم يعرفوا ماهيته ولا لمن هذا الجند ، وما لبثوا ان ادركوا انهم نجدة المسيح بقيادة القديسين جرجس ومرغوريوس وديمترى ، وينبغى الايمان بهذه الشهادة ، لان الكثيرين من رجالنا شاهدوا تلك الآية .

ولما رأى الترك المقيمون على جانب البحر أن لم تعد لهم قدرة على المقاومة أضرموا النار فى الحشائش حتى يراها المقيمون فى خيمهم ويلوذوا بالفرار ، فلما تبين هؤلاء الاشارة استولوا على كل ثمين وانطلقوا هاربين ، فتقدم رجالنا على مهل لمنازلة الفريق الاعظم من جيشهم ، وكان تقدمهم شطر معسكره ، وذرع الدوق جود فروى وهيج العظيم وكونت فلاندر الى ساحل النهر حيث وجدوا الكثير من جحافلهم ، فتدرعوا بعلامة الصليب وكروا عليهم كرة رجل واحد ، فلما رأت البقية ذلك طاردتهم هى الاخرى ، فتعالى صياح الترك والفرس ، أما نحن فقد مجدنا الاله الحى الصادق ، وحملنا عليهم باسم يسوع المسيح والمذبح المقدس ، والتحمنا واياهم فى القتال ، وتغلبنا عليهم بمعونة الرب .

استولى الفزع على الترك فانثالوا هاربين ، ومضى رجالنا فى آثارهم حتى خيامهم ، وآثر فرسان المسيح أن يقصوهم ، ورأوا أن قصهم إياهم أجدى من الاستيلاء على الغنيمة ، وظلوا فى أعقابهم حتى جسر العاصى فقلعة تنكريد ، فخلى العدو وراءه خيمه وذهبه وفضته وكثيرا من المتاع والماشية والثيران والماعز والبغال والابل والحمير والحنطة

والنبيذ والطحين وكثيرا غير ذلك مما كان يلزمنا (١) ، فلما إستطار نبأ ظهورنا على الترك الى سمع الارمن والسريان المقيمين فى المنطقة جروا نحو الجبل ليسدوا عليهم الطريق ، وفتكوا بكل من استطاعوا إلقبض عليه منهم .

استعدنا المدينة فى سرور عظيم ، فأخذنا نمجد الرب ونشكره على أن آتى جماعته النصر .

أما [أحمد بن مروان] القائد القائم بحراسة القلعة فقد استبد به الذعر حين رأى كربوغا ورجاله يفرون من ساحـــة القتال أمام جيش الفرنجة ، وسرعان ما بادر الى طلب الرايات الفرنجية ، فأمر كونت صنجيل — الذى كان مرابطا أمام القلعة — برفع رايته دو نسواه ، فأخذها منه وركزها لساعته على البرج ، فلما شاهدها اللمبارديون(٢) الموجودون هناك قالوا : « ليست هذه راية بوهيمند » .

فسألهم [أحمد بن مروان] : « فراية من اذن ؟ »

فأجابوه : « انها راية كونت صنجيل » .

وحينئذ تقدم [أحمد بن مروان] واقتلع الراية وردها الى الكونت وفى هذه اللحظة قدم بوهيمند المحترم وناول رايته [للقائد] التركى الذى تلقاها بيد السرور ، وعقد اتفاقية مع السيد بوهيمند الذى اذن

---

(١) يذكر ابن الاثير : الكامل ، ج ٨ ص ١٨٧ أن الفرنجة قتلوا من المجاهـــدين الوفا « وغنموا ما فى المعســـكر من الاقوات والاموال والاثاث والدواب والاســلحة فصلحت حالهم وعادت اليهم قوتهم » .

(٢) المقصود بذلك جماعة بوهيمند النرمنديون ، « راجع المقدمة » ، ويستدل من سياق هذا الكلام على وجود اتصال سرى سابق بين بوهيمند وبين ابن مروان وقداخفاه بوهيمند عن بقية زعماء الحملة ، راجع أيضا
Raimond d'Aguilers, pp. 260-61.

بمقتضاها للكفرة الذين يريدون اعتناق المسيحية بالاقامة معه ، بينما اذن لمن انصرف عنها منهم بالرجوع سالمين آمنين دون أن يمسسهم أدنى ضر أو اذى .

ووافق [بوهيمند] على جميع مطالب الامير [أحمد بن مروان] ، وسرعان ما أنزل سر جنديته فى القلعة ، ولم تنقض الا أيام قلائل حتى عمد القائد المسلم وجميع من آثروا الايمان بالمسيح (١) ، أما أولئك الذين فضلوا البقاء على ملتهم فقد بعثهم السيد بوهيمند الى منطقة المسلمين .

وقدجرت هذه الوقعة فى اليوم الرابع (٢) قبل مستهل يوليو ، ليلة عيد الحواريين بطرس وبولص ، فى حكم السيد عيسى المسيح ، الذى له الشرف والمجد على مر العصور الى الابد .

آمين ! .

* * *

(١) Cf. Foucher des Chartres, pp. 257-8; Raimond d'Agilers, p. 261.

(٢) أى يوم ٢٨ يونيو ١٠٩٨ .

من تخليص انطاكية الى وقعة عسقلان

(من ٢٩ يونيو الى ١٢ أغسطس ١٠٩٩)

الزحف على بيت المقدس . حملة ريموند بيليه . موت اديمار . حملة
الصنجيلى على البارة . خلاف الزعماء حول انطاكية . استيلاء
ريموند وبوهيمند على المعرة . زحفهما على أورشليم
الوصول امام عرقة . انحساد الامراء عدا
بوهيمند . حصار عرقة . رفع الحصار عنها .
الوصـــول لبيت المقدس ومحاصرتها
الاستيلاء عليها . انتخاب جود فروى
وموقعة عسقلان

* * *

٢٠ ـ هزم أعداؤنا قاطبة هزيمة ساحقة . وشكرنا الرب الثالوث الاوحد على نعمه بما يستحق ، وشرع الترك فى الهرب من كل النواحى ، فكان بعضهم أنصاف أحياء والبعض الآخـر منهم قد أثقلته جراحـه فراحوا يتساقطون موتى فى الوديان والغابات والحقول وفى الطرقات .

أما شعب المسيح وهم الحجاج الظافرون فقد عادوا الى البلدة بعد ظهورهم على العدو وهم فى غاية الفرح بعد انتصارهم على العدو .

واذ ذاك بادر سادتنا : الدوق جودفروى ، وكونت ريموند صنجيل وبوهيمند ، والسيد روبرت كونت نرمنديا ، وروبرت كونت فلاندر وكثيرون غيرهم الى ارسال هيز العظيم : ذلك الرجل الموقر الكريم الى

امبراطور القسطنطينية عساه يقدم لتسلم المدينة ، وتنفيذ الاتفاقات التى أبرمها معهم ، ومن ثم رحل [هيج] الا انه لم يعـــد بعد ذلك أبدا (١) .

بعدأن فرغ زعماؤنا من ذلك التأم شملهم ثانية ، وعقدوا مؤتمرا لايجاد الوسائل اللازمة لحكم وقيادة الشعب حتى ينجز رحلته الى الهيكل المقدس الذى تكبدوا فى سبيله كل هذه الاخطار ، وقر رأيهم فى هذا الاجتماع على أنه لم يعد فى قدرتهم دخول أرض الكفرة لما تكون عليه زمن الصيف من شدة الجفاف ونضوب المياه ، ومن ثم قبلوا أن يؤجلوا ذلك الدخول الى نهاية شهر نوفمبر ، فتفرق السادة ورحل كل الى ناحيته (٢) حتى يحين الوقت المتفق عليه ، ونادى الامراء فى جميـــع نواحى البلدة بأن كل من يجدون أنفسهم فى ضيق ويحتاجون للدينار والدرهم يستطيعون أن يقيموا معهم اذا شاءوا حسب اتفاق يبرم بين الطرفين ، وانهم يتلقونهم على الرحب والسعة .

***

كان هناك فارس من جماعة الكونت صنجيل ويدعى ريموند بيليه الذى استخدم لنفســه جماعة ليست بالقليلة من الفرسان والمشـــاة ، فرحل بمن جمعهم من الجند ودخل المنطقة الاسلامية غير هياب ولاوجل وبعد أن جاوز مدينتين وصل الى قلعة تدعى « تل منس » ، فبادر أهلها من السريان للاستسلام له من تلقاء أنفسهم ، فأقام بينهم قرابة ثمانية

---

(١) لا يعنى ذلك انه لم يؤد المهمة التى نيطت به ، بل يستدل من Raymond d'Aguilers على أنه لقى الامبراطور بالقسطنطينية ، راجع أيضا Albert d'Agix, p. 434

(٢) يقصد صاحب الجستا بذلك ان كلا منهم رحل الى ناحية من النواحى التى احتلوها قبل استيلائهم على انطاكية ، فذهب بوهيمند الى منطقة آسيا الصغرى ، وجود فروى الى الرها حيث كان اخوه بالدوين .

أيام الى أن جاءته الرسل مفضية اليه بوجود حصن للمسلمين على كثب منه ، وتقوم على حراسته حامية ضخمة ، فنهض الحجاج — فرسان المسيح — فى الحال للزحف على هذا الحصن وأحدقوا به من كل جانب، وسرعان ما تمكنوا من الاستيلاء عليه بمعونة السيد المسيح ، واذ ذاك القوا القبض على جميع فلاحى تلك الناحية وقتلوا كل من أبى اعتناق النصرانية ، أما أولئك الذين آثروا الايمان بالمسيح فقد خلوا سبيلهم وأبقوا على حياتهم .

***

بعد أن تم ذلك انصرف فرنجتنا تغمرهم الغبطة الى القلعة الاولى(١) ثم غادروها فى اليوم الثالث (٢) وجاءوا الى معرة النعمان القريبة منهم، حيث كان قد اجتمع بها نفر كبير من الاتراك والشرقيين القادمين من حلب ومن جميع البلدان الاخرى ومن الحصون التى فى تلك النواحى، وخرج البرابرة للهجوم على رجالنا الذين أجمعوا العزم على الالتحام بهم فى القتال وأرغموهم على الفرار ، الا انهم مالبثوا أن عادوا وظلوا طول يومهم يعاودون قتالنا مرة بعد أخرى ، واستمر هذا الهجوم حتى المساء وكان الحر ثقيل الوطأة فلم يعد رجالنا يطيقون احتمال الظمأ لانهم لم يجدوا قط قطرة من الماء يطفئون بها غلتهم ، ومن ثم رغبوا أن يعودوا سالمين فى أنفسهم الى حصنهم (٣) .

غير أن السريان والرجالة الذين استولى عليهم الفزع دفعتهم خطاياهم الى النكوص على أعقابهم ، فلما رآهم الترك وهم يولون الادبار انطلقوا

(١) يقصد بذلك قلعة تل منس .

(٢) أى يوم ٢٧ يوليو .

(٣) أى تل منس .

فى آثارهم وامدهم النصر بالبأس العظيم ، فأســـلم كثير من رجالنا أرواحهم لله الذى دفعهم حبهم اياه للتجمع هناك .

وكانت هذه المذبحة فى اليوم الخامس (١) من شــهر يوليو . أما الفرنجة الذين نجوا من الموت فقــد عادوا الى قلعتهم ، وبقى ريموند [بيليه] هناك مع قواته فترة من الزمن .

* * *

أما بقية القوم المقيمين بأنطاكية فى فرح ونشوة كبرى فقد فجأهم اشتداد المرض بمدبر أمرهم وراعيهم أسقف بوى ، وذلك تبعا لمشيئة الرب التى بمقتضاها وحدها هجر هذا العالم راقدا فى هدوء ، وذهب ليرقد عند السيد يوم العيد المسمى بعيد القديس بطرس فى الاصفاد(٢) ونتج عن ذلك كرب شديد وغم مقيم فقد شمل الحزن البالغ جميع جيش المسيح قاطبة لانه (٣) كان عضد الفقراء ومشير الاغنياء ، فكان يأمــر الكهنة بذلك ويكرز فيهم ، ولطالما قال للفرسان فى عظاته لهم : « لن يستطيع أحدكم انقاذ نفسه ان لم يبجل الفقراء ويواسيهم ، وهيهات أن تتهيأ النجاة لكم عن طريق سواهم ، كما أنهم لا يستطيعون العيش بدونكم ، ومن ثم فان ابتهالاتهم اليومية تتصاعد الى الرب الذى طالمـا تسيئون اليه ، فيغفر للمخطئين منكم خطاياهم ، واننى لاســألكم ان تحبوهم حبكم لله وأن تساعدوهم جهد ما تستطيعون » .

---

(١) Hagenmreyer : Ghronologic de la premièr croisade, n. 307.

(٢) أى يوم أول أغسطس ١٠٩٨ .

(٣) يعنى بذلك اديمار أسقف دى بوى .

٣١ — رحل بعد ذلك بقليل (١) الكونت المحترم ريموند دى صنجيل وتوغل فى المنطقة الاسلامية حتى بلغ بلدة يدعونها « ألبارة » فشد عليها برجاله . وسرعان ما دانت له ، فقتل جميع من وجدهم بها من المسلمين والمسلمات غير مفرق بين صغير وكبير ، ولما تم له امتلاكها أرجعها الى دين المسيح ، وعقد مجلسا من ذوى الرأى من جماعته ليعهد فيه بالمدينة الى رعاية أسقف يرجعها الى دين المسيح وعبادته، وليجعل من هذا المسكن الشيطانى معبداً نذره لله الحى القيوم ، وأقام المحاريب على شرف القديسين .

وسرعان ما اختاروا رجلا (٢) عاقلا شريفا سيروه الى انطاكية لترسيمه [أسقفا] لها ، وأخرجوا الاختيار الى حيز التنفيذ .

أما الآخرون الذين بقوا بأنطاكية فقد شملهم الفرح وعمتهم البهجة .

ولما حل الامد المضروب — أعنى عيد جميع القديسين — انكفأ كل زعمائنا الى أنطاكية وانصرفوا يعدون العدة لانجاز الرحلة الى القبر المقدس قائلين : « لما كانت ساعة الرحيل المتفق عليها قد أذنت بالمجىء فانه لم يعد ثم وقت أكثر من هذا للجدول » .

* * *

ظل بوهيمند — من جانبه — دائبا طول الوقت على حمل الزعماء على الاعتراف بالعهد (٣) الذى عاهده عليه جميع السادة بتملكه المدينة،

---

(١) كان ذلك بعد ١١ سبتمبر ، راجع فى تحقيق ذلك
Brehier, op. cit., p. 167, n. 4.

(٢) كان هذا الرجل الذى اختاروه أسقفا يدعى « بطرس الناربونى » ، وهذه هى أول اسقفية لاتينية فى بلاد الشام ، راجع Raymond d'Aguilers, p. 266.

(٣) فيما يتعلق بهذا العهد راجع ما سبق ، رقم ٢٠ .

غير أن كونت صنجيل لم يعتبر نفسه مرتبطا بأى اتفاق مع بوهيمند مخافة أن يكون فى هذا الاتفاق نكث لليمين مع الامبراطور ، وتعددت الاجتماعات التى عقدوها فى كنيسة القديس بطرس للبحث فيما ينبغى عمله ، وقرأ بوهيمند نص الاتفاق ، وأطلعهم على اتفاقه معه ، وفعل كونت صنجيل مثل فعله حيث ذكر شروط اليمين التى قطعها للامبراطور نزولا على نصيحة بوهيمند (١) .

وحينذاك غادر الاجتماع الاساقفة والدوق جود فروى وكونت فلاندر وكونت نرمنديا والسادة الاخرون ، وانطلقوا شطر الناحية التى يوجد بها كرسى القديس بطرس ليتفقوا على حكم يقضون به بين الاثنين ودفعتهم خشيتهم من عرقلة السير الى القبر المقدس الى كتمان ما أجمعوا الرأى عليه وقرروه فيما بينهم ، وأخيرا صاح كونت صنجيل بهم «أقول لكم — حتى لا نهجر طريق القبر المقدس — اننى راض بكل ما اتفق عليه الدوق جود فروى والكونت فلاندر وروبرت النرمندى وغيرهم من السادة اذا قبل بوهيمند أن يصحبنا ، واننى نازل على ما قضوا به الا فيما يتعلق بوفائى بعهدى للامبراطور » .

فاستصوب بوهيمند قوله هذا كل الاستصواب ، وجاء الاثنان فاقسما بين أيدى الاساقفة أن لن يحاول أحدهما — بأية وسيلة ما — تعويق الزحف الى القبر المقدس .

واذ ذاك أخذ بوهيمند فى مشاورة رجاله ليكفل تموين القلعة القائمة على الجبل العالى بالرجال والاقوات ، وفعل كونت صنجيل فعله فأخذ

---

(١) انظر ما سبق ، رقم ٦ .

هو الآخر فى الاتفاق مع رجاله بشأن تموين قصر الامير ياغى سيان والبرج العالى القائم عند مدخل الجسر تجاه ميناء القديس سمعان ، وأقول شاور جماعته بشأن امداد ذلك بالرجال والذخيرة لمدة طويلة .

٣٢ ـ مدينة أنطاكية رائعة عظيمة ، اذ يوجد داخل أسوارها أربعة جبال ضخمة شامخة الذرى ، ويقوم على أعظمها ارتفاعا حصن حصين قوى جيد البناء ، وعلى السفح تمتد المدينة الرائعة المحبوبة ، قد ازدانت بكل ضروب الفتنة ، لما تحويه من الكنائس العدة التى تكاد تبلغ ثلاثمائة كنيسة ، كما تضم ستين ديرا ، ويشرف بطركها على مائة وثلاثة وخمسين أسقفا .

والمدينة محاطة بسورين : أكبرهما شديد الارتفاع ، عجيب البناء ، مشيد تشييدا عجيبا ، ففيه أربعمائة وخمسون برجا ، وأينما ولى المرء وجهه شدهه جمال المدينة .

وتحيط بها من الشرق أربعة جبال عظيمة ، ويجرى فيها من الناحية الغربية نهر يسمى بنهر فرفر [وهو العاصى] ، حيث يتدفق على مقربة من أسوارها .

وهذه المدينة بالغة الشهرة ، فقد تولاها فى مبـــدأ الامر خمسة وسبعون ملكا ، أولهم « أنتيوكس » الذى سميت المدينة باسمه وقد أقام الفرنجة على حصارها مدة ثمانية أشهر ويوم واحد ثم حاصرهم الترك وغيرهم من الوثنيين مدة ثلاثة أسابيع ، الا أن الغلبـــة كانت للمسيحيين بفضل معونة العرب والضريح المقدس ، وأقمنا مطمئنين راغدين مدة خمسة أشهر وثمانية أيام .

٣٣ ـ اتخذت هذه التدابير الدقيقة فى شهر نوفمبر ، واذ ذاك غادر

ريموند كونت صنجيل مدينة أنطاكية بجيشه ، وبلغ مـــدينة تدعى « الروج » ثم أخرى تسمى « البارة » ، وقبل نهاية شهر نوفمبر بأربعة أيام أدرك مدينة « المعرة » وقد اجتمع بها حشد كثيف من الشرقيين والترك والعرب وسواهم من الكفار ، فلما كان اليوم التالى هاجمهـا الكونت .

وبعد فترة قصيرة من الزمن سار بوهيمند بجيشه فى آثار الكونتات واتصل بهم يوم الاحد .

وفى يوم الاثنين (١) حملوا حملة عنيفة على المدينة من جميع نواحيها ، واستبسلوا استبسالا عظيما شديدا مكنهم من تثبيت الســـلالم على الاسوار ، غير أن قوة الكفار كانت أشد فلم يستطع رجالنا أن يصيبوهم بأدنى أذى .

لما رأى سادتنا ألا جدوى من ذلك العمل وأنهم لا يجنون ثمرة ما ، قام ريموند كونت صنجيل وشيد حصنا خشبيا باسقا منيعا ، يدور على أربعة دواليب وجهزه بما يحتاج اليه ، فكان يوجـد فى الطابق الاعلى جماعة من الفرسان مع « افرار الصياد » الذى كان أشد من يقــرع الطبول ، ومن تحتهم الفرسان المدرعون الذين يدفعون الحصن الى قرب الاسوار ليلاحق أحد الابراج . فلما شاهد الكفار هذا العمل بادروا فى الحال الى وضع آلة أخذت تقذف الحصن بالحجارة الضخمة وكادوا ان يقتلوا جميع فرساننا ، كما أخذوا يرمون الحصن بالنار الاغريقية عساه أن يحترق ويتهدم ، الا أن الرب القوى لم يشأ أن يحترق الحصن هذه المرة ، لانه كان أعلى من كل أسوار المدينة .

أما فرساننا الموجودون بالطابق الاعلى ــ وفيهم وليم مونت بيليه

---

(١) هو يوم الاثنين ٢٩ نوفمبر ١٠٩٨ .

وكثيرون غيره — فقد مضوا يقذفون المدافعين عن السور بالاحجار الضخمة ، كما شرعوا يضربون بشدة على مجناتهم ، فكان الرجل وفرسه يسقطان فى داخل المدينة ويصاب بضربة قاتلة ، وبينما كان هؤلاء يتحاربون كان هناك آخرون يستعملون رماحا عقدوا بها الرايات ، واستطاعوا بواسطة رماحهم وشصوصهم الحديدية تصيد الاعداء ، وظل القتال مستمرا على هذه الصورة حتى المساء .

كان يوجد خلف الحصن جماعة القسس والشماسة فى مسوحهم المقدسة ، وهم يصلون لله ويبتهلون اليه أن يرفع المعرة عن شعبه ، وأن يعلى كلمة المسيحية ويلاشى الوثنية ، وكان هناك فى ناحية اخرى فرساننا وهم فى حرب دائمة مع العدو ، ينصبون السلالم على سور المدينة ، غير أن مقاومة الوثنيين كانت من الشدة بالدرجة التى عاقت رجالنا عن أى تقدم ، ومع ذلك فقد كان جوفييه دى لاستور أول من إعتلى السور بواسطة السلم الذى سرعان ما تحطم تحت ثقل رفاقه الكثيرين ، ألا أنه كان قد تمكن من أعتلاء السور مع جماعة منهم ، كما وجد فريق غيرهم سلما آخر ، وسرعان ما ثبتوه على السور ، وبادر فارتقاه كثير من الفرسان والمشاة وتسلقوا الحائط ، غير أن الشرقيين هاجموهم هجوما عنيفا على السور وعلى الارض ، وأشرعوا نحوهم الاسنة ، وأخذوا يضربونهم عن قرب برماحهم ، فاستولى الذعر على كثير من رجالنا ، فألقوا بأنفسهم من فوق السور .

وفى الوقت الذى كان فيه أولئك الرجال الشجعان واقفين على قمة السور يكابدون أهوال الهجوم ، كان الاخرون الذين عند سفح الحصن يعملون على نقب سور البلد ، فلما رأى المسلمون أن رجالنا قد نقبوا

حائطهم استبد بهم الرعب وانطلقوا هاربين الى داخل المدينة ، وقد حدث ذلك كله يوم السبت ١١ ديسمبر وقت صلاة الستار عند غروب الشمس ، واذ ذاك أمر بوهيمند — على لسان مترجمه — زعماء المسلمين بالالتجاء — هم ونساؤهم وأطفالهم ومتاعهم — الى قصر واقع جنوب المبناء ، وأخذ على نفسه عهداً أمنهم به على حياتهم .

بعدئذ دخل رجالنا جميعا الى المدينة ، واستحوذ كل منهم لنفسه على كل ثمين مما وجدوه فى المنازل والمخابىء ، فلما طلع الصباح أخذوا يقتلون كل من راحوا يعثرون عليه من أعدائهم رجلا كان أم امرأة ، حتى لم تعد ثم ناحية ما من المدينة خالية من جثث المسلمين ، وندر أن يجوب المرء شوارع البلدة دون أن يطأ تلك الجثث ، وقبض بوهيمند على من أمرهم بالدخول الى القصر الذى عينه لهم وسلبهم كل ما كانوا يملكونه من الذهب والفضة وسواهما من الحلى . ثم قتل البعض وساق الباقين الى أنطاكية ليباعوا بها .

أقام الفرنجة فى هذه المدينة مدة شهر وأربعة أيام ، وفى أثناء ذلك مات [وليم] أسقف أورانج .

وكان بين رجالنا فريق لم يجد هناك ما يحتاجه ، وذلك لطول مكثه ولصعوبة التموين ، ولانه لم يستطع أن يجد خارج المدينة شيئا يستولى عليه ، واذ ذاك أخذ رجاله يبقرون بطون القتلى لما علموه من أن بعضهم كان قد ابتلع النقود ، ومضى غيرهم يقطعون لحومهم قطعا ويطهرونها ليقتاتوا بها .

٣٤ — لم يستطع بوهيمند أن يصل الى اتفاق مع الكونت صنجيل على ما طلبه (١) ، وقام وهو فى سورة غضبة فقفل راجعا الى أنطاكية ،

---

(١) كان بوهيمند قد طلب من الكونت ريموند الصنجيلى أن يؤجل رحيله الى المعرة وكره الصليبيون المحاربون تعويق الرحلة الى بيت المقدس فألحوا على ريموند فى السفر الى القدس فأجاب وحدد وقتا لبداية السفر ، مما أحنق بوهيمند فرجع الى أنطاكية .

ولم يتوان الكونت ريموند عن أن يبعث رسله الى الدوق جود فروى وكونت فلاندر وروبرت كونت نرمنديا وبوهيمند يطلب منهم القدوم الى « الروج » لمفاوضته ، فجاء جميع السادة وتشاوروا لايجاد خطة تحفظ لهم شرف السير الى الضريح المقدس الذى نهضوا من أجله بحربهم الصليبية ، وقدموا فى سبيله حتى بلغوا هذه الناحية .

ولكنهم لم يستطيعوا حمل بوهيمند على الاتفاق مع كونت ريموند فقد أبى ذلك الا اذا رد له الكونت أنطاكيـــة (١) ، فمتنع الكونت عن استجابة هذا الطلب بسبب العهد الذى كان قد قطعه للامبراطور ،وفى النهاية عاد الكونتات والدوق الى أنطاكية بصحبة بوهيمند ، وقفل الكونت ريموند راجعا الى المعرة حيث كان الحجاج موجودين ، وطلب الى فرسانه تجهيز القصر والحصن الذى كان موجودا أعلى مينـــاء الجسر .

ولما رأى ريموند أن ليس هناك من أحد من القادة يرغب فى السير الى الضريح المقدس من أجله فقد خرج من المعرة حافيا يوم ١٣ يناير وقصد كفر طاب وبقى بها ثلاثة أيام حيث انضم اليه كونت نرمنديا ، وبعث أمير (٢) شيزر رسلا من قبله الى الكونت ـ وهو بالمعرة وكفر طاب ـ يعلنون اليه رغبة مولاهم فى موادعته ، وأنه يقبل ان يشاطره الكونت بعض ما يملك ، وأنه عامل جهده على راحة الحجاج ويقسم له على ذلك بدينه ، كما انه يتعهد له بألا ينالهم أى أذى داخل حدود أرضه ويؤكد أنه سيمده ـ عن طيب خاطر ـ بما تحتاجه الجيـــاد والرجال من الاقوات .

---

(١) كانت قوات ريموند الصنجيلى تحتل قصر الامير ياغى ســـيان وبعض نواحى أنطاكية ، وكان بوهيمند يكره ان يشاركه احد لا سيما الصنيجلى ـ فى احتلال انطاكية .

(٢) سماه صاحب الجستا فى المتن بملك شيزر "Rex Cesaree" وكذلك ارسال ازاء صاحبى طرابلس وحمص .

رحل رجالنا حتى اذا صاروا على كثب من شيزر الواقعة على نهر العاصى نصبوا معسكراتهم هناك ، فانزعج أمير شيزر حين رأى أن الفرنجة قد ضربوا خيامهم قرب المدينة ، وأمر بمنع المئونة عنهم ان لم يبتعدوا عن ضواحى البلد .

وفى اليوم التالى أنفذ صحبتهم رسولين من الترك ليدلاهم على مخاضة يعبرون عندها النهر وليمضيا بهم الى حيث يجدون الغنيمة الطيبة ، فوصلوا الى واد تشرف عليه احدى القلاع ونهبوا هناك أكثر من خمسة آلاف رأس من الغنم وجزء غير قليل من القمح وغير ذلك من السلع التى يمكن أن تعين جميع القوات المسيحية ، واستسلمت حامية القلعة للكونت وأعطته بعضا من الجياد والذهب ، ثم أقسمت له بدينها ألا تمس الحجاج بأذى ما .

وأقمنا هناك مدة خمسة أيام (١) ، ثم رحلنا — يعمنا الفرح — لنعسكر قرب حصن العرب ، فخرج الينا صاحبه وعقد اتفاقا مع الكونت .

وصلنا — بعد مغادرتنا هذه الناحية — الى مدينة عظيمة زاخرة بالذخيرة وواقعة فى أحد الوديان يسمونها « رفنية » ، فلم يكد نبأ قدوم الفرنجة يترامى الى سمع سكانها حتى غادروها وتركوا ما بها من البساتين الممتلئة بالبقول وخلوا مساكنهم المذخورة بمواد القوت وهاموا على وجوههم ، أما نحن فقد غادرنا هذه المدينة بعد ثلاثة أيام (٢) من اقامتنا بها ، وعبرنا جبلا هائلا شامخا ، فلما جاوزناه دخلنا وادى البقيعة (٣) حيث كانت توجد ذخيرة وفيرة ، وبقينا هنا خمسة عشر

---

(١) وذلك من ١٧ يناير ١٠٩٩ حتى ٢٢ منه .

(٢) وذلك يوم ٢٥ يناير ١٠٩٩ .

(٣) ورد اسمه فى الاصل اللاتينى "Sem" ، لكن راجع فى هذا الاسم : Brehier : Hist. Anonyme, p. 183, note 3. حيث ذكر انه واقع بين جبل عكار وجبل الانصارية ويمر به الطريق الواصل بين حماة وطرابلس .

يوما (١) .

كان يوجد بالقرب منا قلعة أعتصم بها جمهور كثير من الكفار (٢)، فهاجمنا هذه القلعة ، وكان نصرنا أمرا مفروغا منه لو لم يخرج الشرقيون من أبوابها قطيعا كبيرا من الحيوان ، فانصرف رجالنا الى خيمهم محملين بجميع أنواع الغنائم ، وفي الصباح الباكر طوى رجالنا خيمهم وجاءوا لمحاصرة القلعة قاصدين من وراء ذلك اقامة معسكراتهم هناك ، غير أن جميع القوم الكفرة لاذوا بأذيال الفرار وخلفوا القلعة وراءهم ليس بها من أحد ، فاقتحمها رجالنا ووجدوا بها كميات كبيرة من القمح والنبيذ والدقيق والزيت وكل ما يحتاجونه .

وهنا احتفلنا بعيد (٣) دخول القديس مريم الهيكل ، واستقبلنا رسلا من مدينة حمص أنفذهم أميرها (٤) الى الكونت ومعهم الجياد والمال ، وعقد معه معاهدة اتفق فيها معه ألا يمس النصارى بما يضايقهم بل تعهد له باحترامهم والمحافظة عليهم ، وبعث أمير (٥) طرابلس رسالة من قبله الى الكونت [ريموند] يسأله الموادعة والاتفاق والارتباط معه برباط المودة اذا أحب ، وانفذ اليه عشرة جياد وأربعة بغال وبعض المال ، غير أن الكونت صرح انه لا يقبل مسالمة أمير طرابلس الا اذا اعتنق النصرانية .

---

(١) وذلك من ٢٩ يناير حتى ١٤ فبراير ١٠٩٩ .

(٢) المقصود بالكفار هنا جماعة الكرد الذين كانوا ينزلون هذه القلعة المسماة « بالكرك » ، راجع في ذلك Brehier, op. cit., p. 183, n. 5.

(٣) وذلك يوم ٢ فبراير ١٠٩٩ .

(٤) أطلق الاصل على جناح الدولة أمير حمص لقب « ملك Rex » ، راجع ما سبق ، ص ١٠٨ ، حاشية رقم ٣ .

(٥) هو أبو علي فخر الملوك بن عمار أمير طرابلس .

بعد أن غادرنا لهذا الوادى الجميل بلغنا مكانا حصينا اسمه «عرقة» وذلك يوم الاثنين منتصف فبراير وأقمنا به خيامنا ، وكان الوادى يعج بحشد كثيف من الكفرة الذين عملوا بهمة عجيبة فى تقوية هذا المكان والاستبسال فى الدفاع عنه ، وخرج أربعة عشر رجـــلا من فرساننا للزحف على طرابلس الواقعة على كثب منا ، فصادف هؤلاء الاربعة عشر فريقا من الترك يبلغ الستين ومعهم غيرهم وقد ساقوا أمامهم الرجال والحيوان ، فكان العدو يقرب من الألف وخمسمائة أو يزيد فتدرع رجالنا بالصليب وكروا عليهم فقتلوا منهم ستة رجال واستولوا منهم على ستة جياد .

***

وانفصل عن جيش الكونت ريموند كل من ريموند بيليه وريموند فيكونت تورين ووصلا امام بلدة طرطوس التى نهض للدفاع عنها جمع غفير من الكفرة ، فنازلاها نزالا عنيفا ، فلما جاء المساء ارتدا الى احدى النواحى ونصبا خيامهما عندها ، وأوقدوا نارا عظيمة كما لو كان الجيش كله موجودا هناك ، فاستولى الذعر على الكفرة ، وتسربلوا بالظـــلام وانسلوا هاربين خفية وخلوا المدينة وراءهم وتركوا بها متاعهم الكثير .

وكان للمدينة الى جانب هذا ميناء (١) فخم يطل على البحر ، فتأهب رجالنا فى اليوم التالى لمهاجمته ، غير انهم وجـــدوا المدينة خالية ، فدخلوها وظلوا ناصبين خيامهم حتى لحظة محاصرتهم لعرقة .

وكانت تتاخمها مدينة أخرى تدعى « مرقية » فعقد واليها معاهدة مع رجالنا وأدخلهم اياها رافعين راياتهم .

---

(١) يقصد بذلك ميناء اللاذقية .

٣٥ — جاء الدوق جود فروى وبوهيمند وكونت فلاندر ، حتى اذا اقتربوا من مدينة اللاذقية انفصل (١) بوهيمند عن بقية الجماعة ، وقفل ذاهبا الى أنطاكية .

أما البقية فقد تابعت سيرها وحاصرت بلدة تدعى « جبلة » وعلم الكونت ريموند دى صنجيل ان هناك جمهورا غفيرا من الوثنيين زاحف علينا لمقاتلتنا ، وسرعان ما عقد مجلسا من رجاله اتفقوا فيه على مطالبة السادة القائمين بحصار جبلة بالنهوض لنجدتهم ، فلما تناهى ذلك الخبر الى سمعهم (٢) عقدوا موادعة مع أميرها وتصالحوا معه واخذوا منه الجياد والمال ، ثم غادروا البلد قادمين لمساعدتنا ، غير أنه ألفى الى الكفرة الا يقاتلونا ، واذ ذاك ضرب الكونتات معسكراتهم خلف النهر وساهموا بنصيب فى حصار هذا المكان .

❋ ❋ ❋

لم يمض غير قليل من الزمن حتى زحف رجالنا على طرابلس ، ووجدوا خارج المدينة جماعة من الترك والعرب والشرقيين ، فهاجمهم رجالنا وحملوهم على الفرار وقتلوا فئة كبيرة من أشراف البلد ؛ واستمر القتل فى الكفرة وتدفقت الدماء حتى اصطبغت المياه التى تغذى المدينة

(١) كان بوهيمند كثير الخشية من مؤامرة تدبر ضده فى أنطاكية فى أثناء غيبته وهذا هو السبب الذى من أجله انفصل عن بقية المحاربين وكر راجعا الى أنطاكية ، راجع Albert d'Aix, p. 453

(٢) كان السبب فى هذا هو ما شعر به ريموند الصنجيلى من ضعف قواته عن احتلال عرقة ، أضف الى هذا ما روته الشائعات من نهوض الخليفة العباسى لنجدة اهلها مما أزعج بال الصنجيلى ، غير انها كانت شائعة كاذبة ، راجع فى ذلك Raimond d'Aguilers, p. 278.

والآبار باللون الاحمر القانى ، وعمهم الحزن والاسى ، واشتد الذعر بالباقين حتى انه لم يعد لاحد منهم الجرأة على مجاوزة أبواب البلد .

وفى يوم آخر أخذ رجالنا فى الزحف حتى اذا صاروا على كثب من وادى « البقيعة » صادفوا بعض الثيران والماشية والحمير وكثيرا من الانعام والجمال ، فكانت عدة ما استولوا عليه من الحيوان ثلاثة آلاف رأس .

وحاصرنا المكان (١) المشار اليه آنفا حصارا دام ثلاثة أشهر الا يوما وأحدا ، واحتفلنا هناك بعيد قيامة السيد المسيح مدة أربعة أيام قبل منتصف أبريل (٢) ؛ وكانت سفننا (٣) قد اقتربت اذ ذاك منا حيث بلغت أحد الموانىء وظلت به طول فترة هذا الحصار ، وحملت الينا ذخيرة وفيرة من القمح والنبيذ واللحم والجبن والشعير والزيت ، فتوفر لدينا ذلك كله أثناء الغزو .

وفى خلال هذا الحصار سعد كثير من رجالنا بالشهادة ، وكان من بينهم إنسلم دى ريبومونت (٤) ووليم بيكاردى وكثيرون غيرهم ممن لا أعرفهم .

وتوالت رسل [ابن عمار] أمير طرابلس على السادة يطلب اليهم مغادرة المكان وموادعته ، فلما علم رجالنا بالمحاصيل الجديدة وأبصروها

---

(١) يقصد بذلك « عرقة » .

(٢) أى يوم ١٠ منه .

(٣) كانت هذه السفن تتألف من سفن انجلزية وأخرى جنوية ، راجع
Raimond d'Aguilers, p. 290.

(٤) Foucher des Chartres, p. 270, Raimond d'Aguilers, p. 276.

لانه فى منتصف مارس كنا نأكل البقول الجديدة وفى منتصف ابريل حصدنا القمح) أقول لما علم رجالنا بذلك عقد الدوق جود فروى وبوزيموند كونت صنجيل وروبرت كونت نرمنديا وكونت فلاندر اجتماعا فيما بينهم وقرروا أن من صالحهم اتمام الرحلة الى بيت المقدس وقت جنى المحاصيل الجديدة .

٣٦ — اذ ذاك غادرنا هذا المكان وبلغنا مدينة طرابس يوم الجمعة ١٣ مايو وقضينا بها ثلاثة أيام ، فسلمنا [أميرها] أكثر من ثلثمائة حاج كانوا فى أسره وأعطانا خمس عشرة الف قطعة ذهبية وخمس عشرة هدية غالية القيمة ، وأمدنا أيضا بذخيرة كبيرة من الجيـــاد والحمير وشتى أنواع المحاصيل التى أغنت جميع جند المسيح ،واتفق مــع زعمائنا على أن يتنصر ويتسلم أرضه منهم اذا هم استطاعوا الظهــور على خليفة مصر فى الحرب التى أعدها لهم واذا تمكنوا من امتلاك بيت المقدس .

وبعد أن تم الاتفاق على ذلك غادرنا المدينة يوم الاثنين [السادس عشر] من شهر مايو ، وأسرينا طول الليل فى طريق ضيق شـــديد الانحدار وأدركنا قلعة « الباطرون » حيث أد بنا السير الى مدينــة مجاورة للبحر يسمونها « جبيل » (١) ، وكابدنا المشقة من جراء الظمأ الممض ، وألم بنا الوهن حتى بلغنا نهرا يدعونه « نهر ابراهيم » .

وبعد أن سرنا ليلة (٢) صعود السيد ونهارها فى طـريق شـــديد الضيق جئنا الى جبل كنا نظن أننا واجـدون عنده العــدو كامنــا يترصدنا ، الا أن رعاية الرب لنا أفقدتهم الجرأة على الاقتراب منــا ، فتقدمنا فرساننا وعبدوا الطريق أمامنا وبلغنا بعدئذ مدينة تطل على

---

(١) سماها الاصل "Zebar"

(٢) وذلك يوم ١٩ مايو .

البحر اسمها « بيروت » خرجنا منها الى أخرى تدعى « صيداء » ، ثم الى غيرها يقال لها «صور» ، ومن صور وصلنا الى مدينة عكا ، وأفضى بنا السير من عكا الى مكان حصين اسمه يافا ، ونصبنا معسكرنا قرب « قيصرية » حيث احتفلنا بعيد العنصرة ، وذلك يوم ٢٩ مايو .

جئنا بعد هذا الى مدينة الرملة التى اخلاها المسلمون خوفا من الفرنجة ، وكانت على مقربة كبيرة منها كنيسة مقدسة دفن فيها جثمان القديس جورج الطاهر ، وذلك لانه كان قد نعم بالشهادة السعيدة فى هذه البقعة على أيدى الوثنيين الكفرة من أجل اسم المسيح ، فعقد قادتنا مجلسا قرروا فيه انتخاب إسقف (١) لرعاية هـــذه الكنيسة وادارتها ، ووهبوه الاعشار ، وأمدوه بالذهب والفضة والجياد وغيرها من السائمة والانعام حتى يكون قادرا على أن يعيش هو ورجاله عيشة خالصة مشرفة ، فأقام مسرورا .

٣٧ — أما نحن فقد عمنا الفرح وتابعنا الزحف حتى بلغنا مدينة بيت المقدس وذلك يوم الثلاثاء [٦] يونيو فى الساعة الثامنة ، وحاصرناها حصارا يدعو الى الاعجاب ، وضيق روبرت النرمندى الخناق عليها من ناحية الشمال قرب كنيسة أول الشهداء القديس اصطيفان من الجهة التى قتل بها رجما فى سبيل اسم المسيح .

وكان الى جانبه روبرت كونت فلاندر .
وحاصرها من الناحية الغربية الدوق جود فروى وتنكريد .

أما الكونت صنجيل فقد أقام فى الناحية القبلية على جبل صهيون .

---

(١) كان هذا الاسقف قسيسا نرمنديا من أسقفية روان واسمه روبرت وذلك بناء على ما ورد فى Guillaume de Tyre, p. 313 راجع أيضا Reimoud d'Aguilers, p. 292.

قبالة كنيسة القديسة الست مريم أم الاله ، فى البقعة التى احتفل فيها السيد وتلاميذه بالعشاء السرى .

وفى اليوم الثالث دفعت الرغبة فى القتال كلا من ريموند بيليه وريموند دى تورين للانفصال عن الجيش ، فصادف فارسا المسيح مائتى عربى فقاتلاهم ، وعاونهما الله فكانت لهما الغلبة عليهم ، وقتلا كثيرا منهم واستوليا على ثلاثين حصانا .

وفى يوم الاثنين (١) هاجمنا البلدة هجوما عنيفا ، وكانت سطوتنا عليها شديدة ، ولو كانت السلالم مهيأة ومعدة لسقط البلد فى أيدينا، ومع ذلك فقد حطمنا السور الصغير ورفعنا السلم على السور الرئيسى، وصعده فرساننا وضربوا عن قرب جماعة الشرقيين والمدافعين عن المدينة بالسيوف وناوشوهم بالرماح ، وكان قتلاهم أكثر عددا من قتلانا .

وفى أثناء هذا الحصار بقينا عشرة أيام لا نجد خلالها الخبز نشتريه ، ودامت تلك الشدة حتى جاءتنا نجدة من سفننا ، ووقعنا فريسة الظمأ المحرق ، واحتملنا أشد المخاوف حتى لقد كنا نمشى ستة أميال لارواء جيادنا وحيواناتنا الاخرى ، غير أننا وجدنا الماء عند نبع « سيلو » الواقع عند سفح جبل صهيون ، الا أنه كان يباع بيننا بثمن جد غال .

بعد أن قدم علينا الرسول من قبل هذه السفن اجتمع سادتنا للتشاور وقرروا ارسال جماعة من الفرسان لحماية الرجال والمراكب الراسية فى ميناء يافا ، فلما كان الصباح انفصل مائة فارس عن جيش ريموند بيليه وأكار دى مونتمول ووليم السبرانى ، ومضوا ثابتى الجنان شطر الميناء .

---

(١) وذلك يوم ١٢ يونيو ١٠٩٩ .

ثم انفصل ثلاثون من فرساننا عن البقية ، وصادفوا سبعمائة رجل من العرب والترك والشرقيين الذين فى جيش خليفة مصر ، فاشتد فرسان المسيح فى الهجوم عليهم ، غير أن تفوق العدو العددى مكنه من الاحداق برجالنا من جميع الجهات ، وقتل أكاردى مونتمول وغيره من المشاة الفقراء .

أحدق برجالنا ، وأخذوا يتوقعون الموت حين وفد رسول على ريموند بيليه يقول له « ماذا تفعل هنا بهؤلاء الفرسان ؟ هؤلاء رجالنا فى قبضة العرب والترك والشرقيين ، ولعلهم الآن قد قتلوا عن آخرهم ، الا هب فأنقذهم » . فلما استطار هذا النبأ بين رجالنا بادروا الى الرحيل ، وأغذوا السير حتى أدركوهم والظبى ملتحمة ، فلما رأى الشعب الوثنى فرسان المسيح انقسم الى كتيبتين ، فهتف رجالنا باسم المسيح وكروا على أولئك الكفرة كرة عنيفة التحم فيها كل فارس بخصمه ، ولما أدرك الاعداء أن لا قبل لهم بمقاومة بطش الفرنجة استبد بهم الذعر العظيم وولوا مدبرين غير مقبلين ، ورجالنا فى آثارهم يتعقبونهم مسافة تقرب من اربعة أميال ، وقتلوا جمعا غفيرا منهم ، كما أخذوا فريقا آخر حيا ليدلوهم على الطريق ، واستولوا على مائة وثلاثة جياد .

وفى أثناء هذا الحصار كابدنا وطأة الظمأ ، حتى لقد كنا نخيط جلود الثيران والجاموس لنحمل فيها الماء مسافة ستة أميال ، وكان الماء الذى حملناه معنا فى الاوانى قد أسن ونتن ، واقتصر طعامنا اليومى على خبز الشعير مما صار مثار حزننا ومبعث أسانا ؛ والواقع أن الشرقيين عملوا من ناحيتهم سرا على نشر المرض بين رجالنا بافسادهم مياه الينابيع والعيون ، كما كانوا يجمعون كل ما يجدونه ويخفون أنعامهم فى الكهوف والمغارات .

٣٨ — تدارس سادتنا اذ ذاك الوسائل التى يهاجمون بها المدينة

بواسطة الكباش حتى يتمكنوا من دخولها وأداء فروض العبادة عند قبر مخلصنا ، فبنوا برجين من الخشب وبعض آلات لا بأس بها ؛ وأقام الدوق جود فروى حصنا جهزه بالآلات ، وفعل الكونت ريموند مثل فعله ، وكانوا يجلبون الاخشاب من آفاق قاصية ، فلما رأى الشرقيون ما نصبه رجالنا من تلك الآلات حصنوا المدينة تحصينا عجيبا ، وقوموا الدفاع عن الابراج أثناء الليل .

فلما تبين لسادتنا أضعف جوانب المدينة — وهو الناحية الشرقية منها — أخذوا في ليلة السبت (١) في نقل الآلات ونقل حصن من الخشب ، فلما تنفس النهار نصبوا الكباش واستعدوا للقتال وشغلوا أنفسهم أيام الاحاد والاثنين والثلاثاء بتجهيز الحصن .

أما الناحية الجنوبية فقد أخذ الكونت صنجيل في ترميم آلاته بها ، وكنا في هذه اللحظة بالذات نكابد الظمأ الميت حتى لقد كان الرجل هنا يعجز عن أن يجد جرعة كافية من الماء تروى غلته لقاء دينار .

وفي يومي الاربعاء والخميس (٢) حملنا حملة صدق على المدينة من جميع نواحيها ، غير أنه قبل استيلائنا عليها أعلن الاساقفة والقساوسة بمواعظهم وخطبهم وجوب القيام بتطواف احتفالى حول أسوار بيت المقدس تمجيدا للرب ، وأن يصحب هذا التطواف القيام بالصلوات واخراج الصدقات والصيام .

وفي الصباح الباكر من يوم الجمعة (٣) قمنا بهجوم عام على البلد

---

(١) ٣ يوليو ١٠٩٩ .

(٢) أى ١٣ ، ١٤ يوليو ١٠٩٩ .

(٣) أى ١٦ يوليو ١٠٩٩ .

دون أن نستطيع أخذها ، فأصبحنا فى ذهــول وخوف شــديدين .
ولما دنت اللحظة التى تحمل فيها سيدنا يسوع المسيح العذاب من أجلنا برفعه على الصليب أخذ فرساننا الواقفون على الحصن فى التقاتل بعنف ، وكان بينهم الدوق جود فروى وأخوه الكونت أستاش .

وفى هذه الاثناء تقدم واحد من فرساننا واسمه « ليتو » واعتلى سور المدينة ، وما كاد يرتقيه حتى هــرب جميع المدافعين عنها من الاسوار الى داخلها فتعقبهم رجالنا وأخذوا فى مطاردتهم معملين فيهم القتل والتذبيح حتى بلغوا هيكل سليمان حيث جرت مذبحة هائلة ، فكان رجالنا يخوضون حتى كعوبهم فى دماء القتلى .

اما الكونت ريموند الذى كان مرابطا فى الوسط فقد قاد جيشه ، ودفع حصنه الخشبى حتى دانى السور ، الا انه كان يوجــد خندق بين الحصن والسور ، وأعلن منحه دينارا لكل من يلقى بثلاثة أحجار فى الخندق ، واستغرق ردمه ثلاثة أيام وثلاث ليال سويا ، فلما تمت تسويته بالارض جذبوا الكبش ودفعوه الى السور ينطحه .

أما فى الداخل فقد حمى وطيس القتال بين المدافعين عن المدينــة وبين رجالنا ، وأخذوا يرمونهم بالنار الافريقية والاحجار ، فلما علم الكونت بأن الفرنجة داخل المدينة قال لرجاله : « ماذا تنتظرون وقد دخل الفرنسيون بأجمعهم البلد ؟ » .

اما القائد الذى كان يقوم بحراسة برج داود فقد استسلم للكونت، وفتح له الباب الذى اعتاد الحجاج أن يؤدوا الجزية عنده ، فلما ولج حجاجنا المدينة جدوا فى قتل الشرقيين ومطاردتهم حتى قبة عمر ، حيث تجمعوا واستسلموا لرجالنا الذين عملوا فيهم أفظع القتل طيلة

اليوم بأكمله ، حتى لقد فاض المعبد كله بدمائهم ، ولما تم لرجالنا الغلب على الكفرة عثروا فى المعبد على فئة كبيرة من الرجال والنساء ، فقتلوا البعض وأبقوا على الذين احسنوا بهم الظن .

وكان قد التجأ الى الناحية العليا من معبد سليمان فريق كثيف من الكفرة من الجنسين رافعين أعلام تنكريد وجاستون بيرن (١) .

وانطلق الصليبيون فى جميع أنحاء المدينة يستولون على الذهب والفضة والجياد والبغال ، كما أخذوا فى نهب البيوت المملوءة بالثروات .

* * *

اشتد السرور برجالنا حتى بكوا من فرحتهم ، ثم سجدوا أمام قبر مخلصنا يسوع وقضوا واجباتهم الدينية ازاءه ، وفى صباح اليوم التالى تسلق رجالنا سطح الهيكل وهجموا على الشرقيين رجالا ونساء ، واستلوا سيوفهم وراحوا يعملون فيهم القتل ، فرمى بعضهم بنفسه من أعلى المعبد ، فتلظى تنكريد غيظا حين شاهد هذا المنظر .

٣٩ — وحينذاك عقد رجالنا مجلسا وانعقد اجماعهم على قيام كل منهم بالصلوات وتوزيع الصدقات كى يختار الله من بينهم واحدا يكون له الحكم على الباقين وعلى المدينة .

وصدر الامر أيضا بطرح كافة موتى الشرقيين خارج البلدة لشدة النتن المتصاعد من جيفهم ، ولان المدينة كادت أن تكون بأجمعها مملوءة بجثثهم ، فقام الشرقيون الذين قيضت لهم الحياة بسحب القتلى خارج بيت المقدس وطرحهم أمام الابواب ، وتعالت أكوامهم حتى

---

(1) Albert d'Axi, p. 316.

حاذت البيوت ارتفاعا وما تأتى لاحد قط أن سمع أو رأى مذبحة كهذه المذبحة التى ألمت بالشعب الوثنى ، وجمت أكوام من الحطب كأنها الاعلام ، ولا يعلم أحد غير الله كم عددها .

اما الكونت ريموند فقلد ساق الامير [جناح الدولة] ورفاقه حتى عسقلان وأبلغهم مأمنهم سالمين .

وفى اليوم الثامن (١) من استيلائنا على المدينة وقع الاختيار على الدوق جود فروى فانتخب أميرا للبلد قصد محاربة الكفرة والدفاع عن النصارى ، حتى اذا كان يوم عيد (٢) القديس بطرس فى الاصفاد انتخب القوم « ارتول » بطركا للمدينة ، وكان رجلا عاقلا شريفا . ولقد تم لنصارى الرب الاستيلاء على هذه المدينة يوم الجمعة الخامس عشر من يوليو .

وفى هذه الاثناء وفد على تنكريد والكونت إستاش [أخى جودفروى] رسول يدعوهما للتأهب والقوم لاستلام مدينة نابلس ، فرحلا على رأس فئة كثيرة من الفرسان والمشاة ، وبلغوا البلدة التى سرعان ما استسلم لهم سكانها .

بعدئذ طلب اليهم الدوق [جرد فروى دى بوبون] أن يغذوا السير لصد الهجوم الذى يشنه [الافضل] وزير مصر على عسقلان ، فأسرعوا باقتحام الجبل مفتشين عن الشرقيين بغية مقاتلتهم ، وبلغوا قيصرية ، ثم ساحلوا سيف البحر حتى وصلوا الرملة ، فعثروا بها على جمهور غفير من العرب قادمين لنفض المكان ، فانطلقوا فى آثارهم وألقوا القبض على الكثيرين منهم ، وحملوهم على الافضاء اليهم ببيانات تتعلق

(١) أى يوم ٢٢ يوليو ١٠٩٩ .
(٢) وهو أول أغسطس ١٠٩٩ .

بموقفهم وعددهم وبالنواحى التى يعتزمون ان يقاتلوا النصارى منها ، فلما أحاط تنكريد بذلك علما هب لساعته ، وأنفذ رسولا الى الدوق جود فروى والى البطريرك [أرنول] والى جميع الامراء [ببيت المقدس] يقول لهم « ليكن معلوما لديكم أن القوم يعدون العدة فى عسقلان لمهاجمتنا ، فبادروا بالمجىء بجميع القوات التى تستطيعون جمعها » .

واذ ذاك أمر الدوق بدعوة جميع الرجال ، كما أمر بسرعة تجهيزهم وتوجيههم آمنين الى عسقلان لصد أعدائنا وقتالهم ، وخرج هو ذاته مع البطرك وروبرت كونت فلاندر من المدينة يوم الثلاثاء (١) ، وصحبهم الاسقف « مارتيرانو » ؛ غير أن كونت صنجيل وروبرت النرمندى جاهرا بأنهما لن يأخذا فى المسير الا اذا تأكد لهما خبر الهجوم ، ولذلك أمرا فرسانهما بالتقدم قبل الرحيل ليروا ان كان حقا ما قيل من استعداد [المصريين] للهجوم ، ثم العودة على جناح السرعة لانهم كانوا على وشك المسير ، فمضى هؤلاء واتضح لهم صدق خبر زحف العدو ، وبادروا الى العودة يروون أنهم شاهدوا ذلك بأعينهم ؛ وما لبث أن وقع اختياره على الاسقف « مارتيرانو » وبعثه الى بيت المقدس حتى يتجهز الفرسان الذين كانوا بها ويمضون فى الزحف للقتال . فلما كان يوم الاربعاء ، تحرك هؤلاء الامراء وساروا للمعركة ، وعاد الاسقف « مارتيراند » حاملا الرسائل إلى البطرك والى الدوق ، فهب الشرقيون لقطع الطريق عليه وأمسكوه ، ورجعوا به .

اما بطرس الناسك فقد بقى فى بيت المقدس لاتخاذ ما تتطلبه الحال من التدابير والاستعدادات اللازمة ، ولدفع الاغريق واللاتين والكهنة

---

(١) وذلك يوم ٩ أغسطس ١٠٩٩ .

الى تمجيد الرب واقامة الصلوات وتوزيع الصدقات حتى يؤتى الله شعبه ما وعده به من النصر ، ولما فرغ الكهنة والقسس من ارتداء ملابسهم الكهنوتية ساروا على رأس الموكب الى هيكل السيد وأخذوا فى ترتيل القداس والصلوات عسى أن يقى الرب شعبه .

وأخيرا اجتمع البطرك والاساقفة والسادة الآخرون عند شاطىء نهر فى ناحية من نواحى عسقلان ، وتمكنوا باجتماعهم فى هذه الضاحية من الاستيلاء على عدد كبير من الضأن والثيران والجمال والنعاج وشتى ضروب الغنائم ، وكان العرب يناهزون ثلاثمائة رجل ، فوثب عليهم رجالنا وأسروا منهم اثنين ، وطاردوا البقية حتى بلغوا جيشهم ، فلما جاء المساء نادى البطرك فى جميع رجال الجيش بوجوب التأهب فى الصباح الباكر للمعركة ، وأصدر قرار الحرمان ضد كل رجل يفكر فى الاستيلاء على شىء من الغنيمة قبل انتهاء الوقعة ، فاذا تم لهم النصر استطاعوا العودة فرحين للاستيلاء على كل ما هيأه لهم الرب .

وفى الصباح الباكر دخلوا واديا خصيبا قريبا من ساحل البحر وضربوا فيه معسكراتهم ، ثم عمد الدوق الى قواته فرتبها للقتال ، وفعل مثله كل من كونت نرمنديا وكونت صنجيل وكونت فلاندر ثم تنكريد وجاستون ، كما ارسلوا جماعة من المشاة ورماة النشاب امام الفرسان ، ولما أتموا ذلك كله شرعوا فى القتال مستفتحيه باسم السيد يسوع المسيح .

كان على الجناح الايسر الدوق جود فروى بقواته ، اما الكونت صنجيل فكان على الجناح الايمن وقد أخذ يذرع الارجاء المجاورة للبحر ، ووقف فى الوسط كل من كونت فلاندر وكونت نرمندى وتنكريد وبقية الآخرين ، ودأب رجالنا فى التقدم على هذا الوضع .

أما الوثنيون فكانوا هم الآخرون متأهبين للقتال ، وقد علق كل منهم وعاء شربه الى عنقه ، كى يسهل عليهم تناول الماء ورشفه حتى وهم مجدون فى آثارنا ؛ غير أن مشيئة الرب لم تدع لهم من الوقت فترة يحققون فيها ما يبتغون ، ولما رأى كونت نورمنديا علم القائد محلى بكرة ذهبية ومرفوعا على طرف رمح فضى ، تقدم غير هياب ووثب على حامله وضربه ضربة أردته قتيلا يتشحط فى دمه ، كما قام تنكريد بغارة على معسكر العـدو الوثنى الذى ما كاد يراه حتى انطلقوا هاربين ، وكان الجند كثيرين لا يحصيهم العد ولا يعرف عددهم سوى الرب ، وحمى وطيس القتال ؛ غير أن قوة الهية عاونتنا وكانت من الضخامة والبأس بالدرجة التى جعلت النصر يواتينا فى أقصر وقت .

غشى الله أبصار أعدائه وأهلهم ، ورغم شدة ابصارهم وعيونهم المحدقة الا أنهم كانوا يحدقون فى فرسان المسيح وكأنهم لا يرون شيئا ما امامهم ، ولم يعودوا يجرءون على رفع أبصارهم الى النصارى ، لان القوة الربانية روعتهم ، وحملهم جزعهم على تسلق الاشجار للاختفاء وراءها ، لكن رجالنا تصيدوهم رميا بالسهام والحراب والسيوف ، واختفى البعض الآخر منهم بالارتماء على الارض دون أن يجرءوا على الوقوف أمامنا ، بيد أن رجالنا ذبحوهم ذبح الاغنام فى السوق ، كما أن كونت صنجيل قتل جمعا غفيرا منهم على كثب من البحر ، وارتمى فيه بعضهم ، وانطلق آخرون على وجوههم هائمين هنا وهناك .

* * *

أما القائد [الافضل] الذى وصل أمام المدينة حزينا يائسا فقـد أخذ يبكى ويقول « يا أرواح الارباب ، ان العين لم تبصر مثل ماجرى ، ولا سمعت الاذن بمثل ما حدث ! أيتها الارواح : يا من لا تعادلك قوة ،

ولا يماثلك بأس ، و لاتضاهيك فروسية قط ، يا من لم تهزمى أبدا أمام أية أمة ولكنك غلبت على أمرك على يد هذه الفئة المسيحية الصغيرة ما أبلغ الحزن وما أشد الاسى ! ماذا أقول وماذا أعيد ؟ أترانى أهزم على أيدى شعب منبوذ جبان ، وجماعة من الصعاليك لا يملكون من الدنيا سوى المزود والعصاة ! هؤلاء هم الذين تتبعوا الشعب المصرى الذى طالما وزع عليهم الصدقات حين كانوا يجوبون بلادنا ملتمسين الاحسان ؟ لقد جمعت هنا مائتى ألف فارس ، ولكنى رأيتهم يثنون أعنة جيادهم ويوجهونها شطر مصر هربا ، وانطلقوا لا يلوون على الوقوف أمام أمة الفرنجة ، وإننى لاقسم بمحمد وبقوة جميع أربابنا(١) أننى لن أقود أية جماعة من الفرسان بعد الآن ما دامت قد طردت على يد مثل هذا الشعب الاجنبى . لقد أحضرت جميع انواع السلاح والآلات لمحاصرة الفرنجة فى بيت المقدس ، لكنهم هم الذين هاجمونى وتعقبونى مدة يومين . واأسفاه ! ماذا أقول اكثر من ذلك ؟ لقد ضاعت هيبتى الى الابد فى مصر ! » .

استولى رجالنا على راية [الافضل] ، فاشتراها كونت نرمنديا بعشرين دينار فضى ، ثم وهبها للبطرك تمجيدا للرب وللضريح المقدس ؛ وتقدم غيره فاشترى سيف [الافضل] بستين بيزنطية .

وهكذا تمت هزيمة أعدائنا جميعا كما شاءت ارادة الرب . وكانت جميع سفن البلاد الوثنية موجودة هناك (٢) ؛ فلما أبصر من بها انطلاق الامير هاربا بجيشه بادروا الى ركوب سفنهم وتسييرها بأقصى سرعة .

---

(١) هذا مثال من جهل كاتب الحوليات ، وهو شبيه بما أورده على لسان أم كربوغا مع أن جوهر الاسلام هو التوحيد .

(٢) أى فى عسقلان .

ولما عادت بقية رجالنا الى معسكر العدو جمعوا غنيمة هائلة من الذهب والفضة ، واستولوا على أكداس من الاموال ، وعلى كثير من شتى أنواع الحيوان والاسلحة ، فحملوا معهم كل ما أحبوا الاستحواذ عليه ، وأضرموا النار فيما تبقى .

وعاد رجالنا الى بيت المقدس حاملين معهم كل ماهم فى حاجة اليه .

وقد جرت هذه الوقعة يوم الجمعة (١) حسب مشيئة سيدنا يسوع المسيح ، الذى له المجد والشرف الى الابد وعلى مر القرون .

آمـــين .



(١) أى ١٠ أغسطس ١٠٩٩ م .

كشاف أبجدى

باسماء الاعلام والاماكن والمواقع
الواردة بكتاب أعمال الفرنجة

الفهرس

كتاب أعمال الفرنجة

كتب

دكتور حسن حبشى

صدر منها :

١ ــ نور الدين والصليبيون . ١٩٤٨
٢ــ الشرق العربى بين شقى الرحى ١٩٤٨
٣ ــ أهل الذمة فى الاسلام لترتون ١٩٤٩
٤ ــ الحرب الصليبية الاولى ١٩٥٨
٥ ــ أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس ١٩٥٨
A. Fifteenth Century Crusade Attempt Against Egypt 1958.

تحت الطبع :

١ ــ الدبلوماسية البابوية .
٢ ــ تاريخ الاندلس لدوزى (فى أربعة أجزاء) .
٣ ــ تاريخ العرب الادبى لنيكلسون .
٤ ــ الاقطاع فى العصور الوسطى لجيزنهوف
(تصدره المكتبة التاريخية)

٥ ــ التطور التاريخى للجريمة والعقاب .
٦ــ رحلة السفير القشتالى تافور .
٧ ــ أنباء الغمر بأنباء العمر لابن حجر العسقلانى (فى ٥ مجلدات)
The Mamluk Expeditions Against Castelrosso And Rhodes

دار الهنا للطباعة ت : ٩٧١٣٢٧